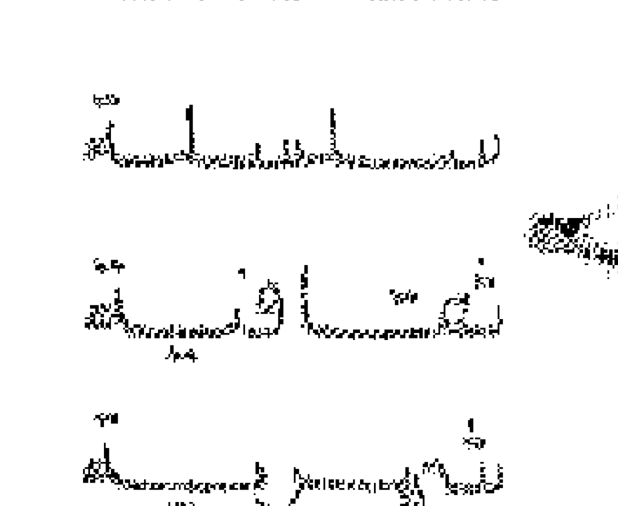
كتاب الهلا

ملك هواية جمع الساعا

أحمد عبد المجيد

٢٩٢



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

العدد ٢٩٢ — ربيع الاول ١٣٩٥ — ابريل ١٩٧٥م

No. 292 — April 1975

مركز الادارة

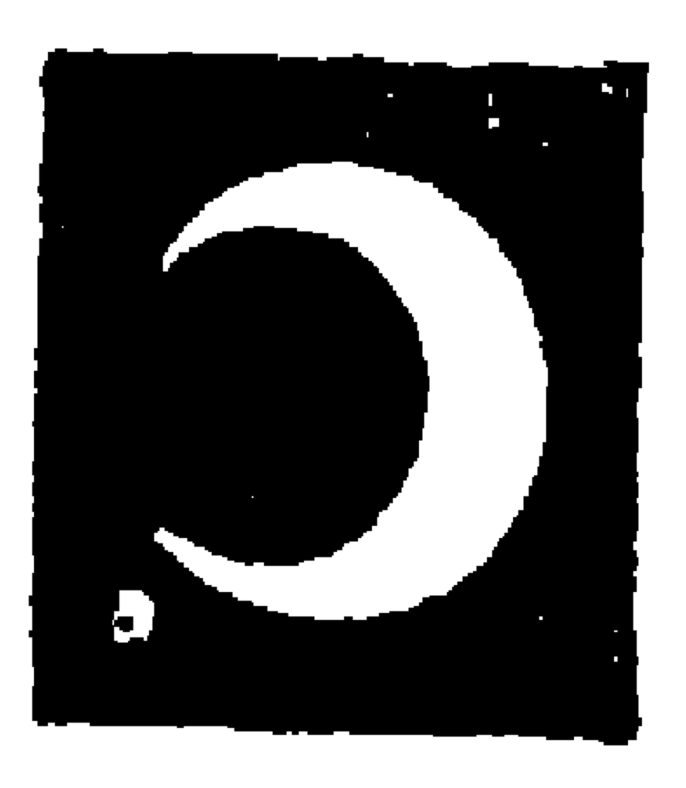
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : «١٢ عددا» فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٢٠ قرشا صاغا • فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات امريكية أو ٢٫٥ جك — والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى — وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشـــة
الفنـــان جمـال قطب

ملك هواية
جمع الساعات

•

تعريب

أحمد عبد المجيد

•

دار الهلال

جيرالد كيرش

اشتهر الانجليز بكتابة الروايات الطويلة ، نثرا كانت أو شعرا ولعلهم اكتفوا بالامجاد التى أضفاها عليهم ، شكسبير ، واوسكار وايلد ، وشارلز ديكنز ، وبرنارد شو ، ويلز ، وسكوت ، وغيرهم .

ولم يبلغوا فى كتابة القصة القصيرة ذلك الشأو الذى بلغه أمثال جى دى موباسان ، وفيكتور هيجو ، وجول فيرن فى فرنسا ، ومكسيم جوركى ، وانطون تشيكوف ، وتورجنيف فى روسيا .. وأمثال البرتو مورافيا ، وبيرانديللو فى ايطاليا . وأمثال مارك توين ، وادجار الان بو ، واونيل فى امريكا .

على ان « جيرالد كيرش » الذى نترجم له فى هذه المجموعة ، أربع قصص قصيرة ، قد ذاع صيته فى بريطانيا وفى الدول التى تتكلم الانجليزية .

وتتميز قصص « جيرالد كيرش » بوضوح الهدف والغاية ، وسلامة النظرة والحبكة ، ويخط درامى خلال أعماله ، تشيع فيه السخرية اللاذعة ، والمرح الذكى ، وهو يتميز الى جانب هذا الوضوح والغاية ، بقدرته على اعداد مسرحه ليتحرك فوقه أشخاص

قصصه فى ثقة بمواقع أقدامهم ، وفى ألفة بما يرتادون من أماكن .

ولجيرالد مجموعات قصصية مثل :

« أكثر من حــدث ذات مرة » ــ « أحسن ما لدى جيرالدكيرش » ــ « يموتون وأجذيتهم نظيفة » .

ولعلى أكون وفقت فى اختيار ما ترجمته من مجموعات هذا الــكاتب القصصى الــكبير .

رحلة بين الثلوج

تاليف : جيرالد كيرش

كانت السيدة « بيلا بارلى » ملكة الفن الكوميدى فى مسارح المجر ، تقول لى فى معرض حديثنا ، اننى لن أفوز منها اليوم بقصة من أقاصيصها ، لانها تعلم ان متعة المستمع تذوى عندما ينصت الى قصة ترويها سيدة عجوز مثلها ، ولى زمانها ، وتغضن وجهها ، وتسللت اليه التجاعيد ، فقلت لها معترضا على الفور: اننى ياسيدتى أخالفك فى موضعين مما ذكرته : فان وجهك ما يزال على نضارته ، كما انك ما تزالين ملء السمع والبصر ، الى جانب انك سيدة لا مثيل لها بين النساء .

وقد أجابتنى بقولها : « لا تتوهم يا صديقى انك قد تصل الى هدفك منى بتملقك واطرائك لى ، على انه من الكفر بنعمة الله ، الظن بأن عيد الميلاد القادم قريبا ، لا يدخل البهجة الا على القلوب الشابة ، فان لى أنا الممثلة العجوز ، التى انطوت على ذكرياتها فى وحدتها ، نصيبا مماثلا لأنصبة الشباب من البهجة فى هذا العيد ، وفى مثل هذا الوقت من العام ، وخاصة عندما يهبط الظلام ، ويصدر عن مدفأة بخار الماء ،

صوت الخرخرة ، وتنبعث منهـــا حرارة خالية من الدفء ، أحس كما لو كنت قلب دجاجة ، انتزع من جســـدها ، وظل ينبض بعد أن أودع فى اناء به دم فى مختبر مهجور ، ومن أجــل ذلك أبتعد عن ذكريات المـاضي بتركي الحديث عنها ، وسرد قصصـــها ، لانصرف الى تزيين شجرة عيــد الميلاد .

وعندما هممت بالجلوس على بســاط الغرفة ، وهى فى روبها الفضفاض المصنوع من الساتان ، الذىاعتادت أن ترتديه وقت تناول الشاى ، ند صوت آهة أشــبه ما تكون بما يصدر من بجعة تشرف على الموت وتجود بآخر أنفاسها .

راحت السيدة ترفع غطاء صندوققديم من الجلد ، امتلأ بزخارف متقنة مما تزين به شجرة عيد الميلاد ، وقد ضمتها لفافة من القطن الشعر ، وهى تقول :

« لقد عاشت هــذه التذكارات معى عبر حياتى ، وكان بعضها مما انتقل الى من أمى ، والبعض الآخر ، من جدتى ، وهى فى جملتها بالنسبة لى ، تمثل متعلقات احتلت على ان أحتفظ بها من عوادى الضيــاع ، أما الباقى .. فماذا أقول ..

« أن ما أكتسبته ، أضعته »
« وما ادخرته ، أنفقتــــه »
« أما الذى أعطيتــــــه »
« فهو الذى ما يزال باقيــا »

فهــل تود أن ترى شيئا أثيرا وغاليا عندى ؟..

وفى عنــاية وحــذر بالغين ، أخــذت السيــدة تفض الرباط عن نجمة عجيبة من الصلب ، تكاد تمثل بقــايا

زهرة الثلج . وعندما أدنيت منها النظر ، تبين لى انها مصنوعة من ثلاث أضلاع متساوية .. من سلك شائك ، وقد تماسكت بشدة عند نقطة التقاطع . ورحت أستمع الى السيدة وهى تقول :

« كنت أمضى عيدا من أعياد الميلاد فى أحد المعسكرات التى كانت معدة للاعتقال فى شرق أوروبا ، وكنا وسط تلك الثلوج وصقيعها المعتم ، نعانى أقصى درجات البرد والجوع والمرض ، حتى تخيلت أنه لن يطلع علينا فجر مقدس طهور ، وبالبقية الباقية من عافيتنا المتلاشية ، استطعنا أن ننزع غصنا من شجرة الباتولا ، ولم يلبث الغصن عندما نثرنا عليه رذاذا من الماء ، فى هذه الليلة القاسية الثلجية ، أن تبلور الماء فوق الغصن وأصبح ثلجا ، ثم أخذنا هذه النجمة ، وتوجنا بها الغصن ، ومضينا ننشد أغان بلغت من روعتها حدا لم يستطع معه الحراس الذين جاءوا ليأمرونا بالصمت ، الا أن يحنوا الرءوس اجلالا وخجلا . ولما كنت أنا صاحبة الفكرة ، وكنت أنا التى قدت جوقة المنشدين ، فقد منحونى هذه النجمة ..

اغرورقت عينا « بيلا » فترة من الوقت ، لم تلبث بعدها أن أخمدت سريعا ما ثار فيها من انفعال ، وراحت تبتسم وهى تقول :

« وأمضينا ليلة عصيبة فى برودتها القاسية ، لم تكن ليلة عيد ميلاد عام ١٨٩٣ ، الا بعضا منها »

سألتها : « وماذا كان من أمر تلك الليلة ! »

فأجابت : « هربت فيها من البيت » .

« من أجلَ ماذا ! »

فردت السيدة بيلا : « وما الذى يحمل الفتاة على أن تغادر منزلا تستريح اليـه ، الا ان يكون مبعثـه يأسا فى غرامها ؟ » .

« فى غرامها ! » ، قلت مستدركا : « لا .. لا .. ياسيدتى ، انك فى عام ١٨٩٩ ، كنت ما تزالين طفلة » .

قالت : « بل كنت فى الثامنة من عمرى ، وكثير من الفتيـات يقعن فى الحب فى مثل هـذه السن ، والواقع ان عاطفتى كانت من النـوع المثـالى ، وكان محورها وغايتها صبى فى العاشرة من عمره ، الا ان مثل هـذه الامور لا يصح ان تحسب بالتقويم التاريخى أو المقيـاس الحسابى ، ولا أحد ينكر ان الحب فى الطفولة لايعيش طويلا ، كما انه لا يتلألأ فى عليـائه . اذن فأى شيء يكون ؟ انه فى ذلك أشـبه شيء بالزهرة . فهل تقل الزهرة فى حقيقة وجودها وجمالهـا عن أى كائن حى أيا ما يكون قدر هذا الـكائن ؟ » .

وما لبثت أن هزت رأسـها الذى يعلوه شـعر أنيق زحف اليه البيـاض ، هزة تنم عن معنى الاسـتعاذة مما كان أو مما حـدث . وكانت ما تزال تجلس على ركبتيها وقد استغرقتها زخرفة شـجرة عيـد الميـلاد بالزينـات ، وراحت تهمهم بقولها :

« يبـدو اننى بسبيل التحدث عن نفسى ، وسرد احدى قصصى السـاذجة » .

ثم مضت تقول :

« فى الرابع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٨٩٩ ، كان والدى العزيز فى غمرة من البهجة ، مبعثها وصول

زائرين من أمريكا ، لم يكن حضـــورهما متوقعا ، انهما مستر ومسز « تريسى بستيتيود » وابنهما «فيرنون» ، من ولاية « بنسلفانيا » .[1] واذا قلت أن والدى بدأ فى غمرة من البهجة ، فذلك لانه كان ينتمى فى ذلك الحين الى الحركة الرومانســية التقدميــة فى أوروبا ، وكان بوصفه هــذا ، يميل كل الميل لــكل ما هو مستحدث فى العالم الجديد . ولعله أن يكون من واقع المفــارقات العجيبة ، أن السيدات الامريكيات عنـــدما كن يعزفن ويلعبن موسيقى الدانوب الازرق فى صــالوناتهن ، كنا نحن فى بودابست ، نرســل تنهداتنا حسرة على كارثة السيل الجارف المنبعث من نهر فائر ، عند التقائه بنهر آخر يزيد عنه فورانا عند المدينة الامريكية الفاتنة التى تدعى « بيتسبرج » . ولمــا كانت مربيتى انجليزية ، فقد كانت معرفتى بالفنون والآداب الغربيــة ، أوسع واكمل من معرفتى واخاطتى بفنــون وآداب بلدى . فعندما وصل آل « بستيتيود » ومروا بنا مجرد مرور، ليبلغوا والدى تحية أحد معارفه فى أمريكا ، صمم والدى على ابقائهم لتنــاول طعــام الغداء . ومع ما أعلمه عن نفسى من تنعمى واحتفالى بوجبات الطعام ، فانى أشهد بأنى لم أكن فى يوم من الايام أكثر تنعما وابتهاجا بالطعام من ذلك اليوم .. ذلك ان الصـــــــــبى « فيرنون بستيتيود » بهرنى وملك على حواسى ، وأشــعل فى صدرى نار الحب ، كما أثار فى نفسى اعجابا لا قدرة لى على دفعه او التحول عنه . كنت انظر اليه فى انذهال ، واعجب بسلوكه الرجولى ، وعيــونه الزرقاء الصريحة الصادقة ، وذقنه الوردية اللون ، الجادة التعبــير ،

وشعره الاصفر المرسل فى اهمال ، بينما كنت بكل آذانى استرق السمع لصوت والده الجهورى وهو يتحدث عن تاريخ عائلته .. آه لو كنت من عائلة « بستيتيود » ! ورغم اننا نحن آل «بارلى» قد شاركنا ببذل دمائنا فى سبيل الوطن من القرن الحادى عشر ، ولنا سلف ينحدر من أرومة نبيلة ، الا ان شيئا فى تاريخ عائلتى لم يثرنى بقدر ما اثارنى حديث الضيف وهو يقول فى ثقة :

«ان مسز « بستيتيود » يا سـادتى تنحدر من سلالة « سيوانجونك » . أما والدتى فانها من عائلة « كيرهوتكسن شويلد » . ولا أدرى لماذا تخيلت جد السيدة « بستيتيود » وهو فى زى قائد من مشاهير القواد ، ولا كيف تصورت جد مستر « بستيتيود » بطلا من أبطال تسلق القمم الشاهقة . ومضى مستر « بستيتيود » يقول :

« لقد فقد والدى ساقه فى احدى المعارك ، أما عن ما صادفنى فى ما اشتركت فيه من معارك ، فاننى لم أصب حتى بمجرد خدش » .. يا للموسيقى السحرية التى تتخلل هذه الاحاديث ..

بعد هـذا الغذاء البهيج ، أخذ الرجال يدخنون سيجارهم ، فى حين انسحبت السيدات الى الصالة ..

انتحيت أنا « بفيرتون » جانبا ورحت أسأله : اذا كان قد حارب الهنود الحمر ؟

فأجاب : بأنه حارب الالاف منهم ..

ومضيت أسأله ، عما اذا كان قد ذبح جاموسة ؟.. فأجاب بالايجاب ..

وهنا قدته الى مكتب والدى ، الذى تدلت منجدرانه

ـ وهو المسالم الهادىء ـ مجموعة من الاسلحة لايتسنى لانسان أن يراها بمثل هذه الكثرة . فمن خناجر خيبر المدببة كسن الابرة ، والحادة كالموسى ، الى سيوف الملايو التى تشبه الافاعى ، الى أسلحة ساموراية وقبضات يد ايطالية ، الى مسدسات وطبنجات وقربينات من جميع العصور والعهود .

عند ذلك قال « فيرنون » :

« كل ذلك لا يعنينى فى شىء ، بل لقد حيرت فكرى هذه الاسلحة ، أرينى مسدسا ذا طلقات ست ! »

تذكرت فى التو ان والدى يحتفظ فى درج من الادراج اليمنى فى مكتبه بمسدس محشو بالرصاص ، أنيق الشكل ، ذى قبضة من العاج المطعم بالذهب ، وبرجفة من يقدم على اتيان عمل اجرامى اذ ان فتح درج خاص فى غيبة والدى يعد خرقا بالغا لقوانين المنزل المرعية ـ اخرجت المسدس من الدرج ، كان على ان احوز اعجاب « فيرنون » مهما كلفنى الامر .

ناولته المسدس وأنا أقول :

« مثل هذا تعنى ؟ »

صاح صيحة الاعجاب والدهشة وهو يخطف المسدس من يدى ثم نظر اليه نظرة هادئة مجربة ، أخذ يهزه وهو فى قبضة يده ، ويصوبه لهدف ويحاكى صوت انطلاق الرصاص ، وراح يدير ساقيته ثم يتحسس ماسورته بسبابته وهو يقول :

« ما أبدعه وما أجمله وأروعه » . وفجأة أخذ صوته يخفت وقد شاعت امارات الذعر فى أساريره حتى أطفأت بريق وجهه الهادىء ، وسمعته يقول :

« لقد أنحشر اصبعي » . بلهجة خيل الي ان مظاهر رجولته قد زايلته ، ولـكني سرعان ما عزوت ذلك الى ما أدركه من ارتباك لا الى خشيـة أو ذعر أو خوف ورحت اشير عليه بأن يبلل اصبعه بريقه في حين أقوم أنا بشد المسدس من مقبضه ، لقد نفذ ما أشرت به ؛ وقمت أنا بالامساك بشدة بقبضـة المسـدس ، وبكل ما املك من قوة شـددته نحوى ، ومن أين لى أن أعلم ، ان اصبعين من أصابعي كانا يلتفان حول الزناد

فما أن اخرج اصبعه من فوهة المسدس ، حتى خرجت منه طلقة هزت أركان المنزل . وقد أحسست من شدة ارتداد السلاح في يدى ، كما لو كانت لسعات حادة قد أشتملتني من أصابعي حتي قدمي ، أو ان بغلا رفسني ، واصابت رفسته وجهي .

ومرت الرصاصة فوق راس « فيرنون » واخترقت ناقوسـا صينيا مما يقرع للتنبيـه الى وقت تنـاول الطعـام ، ومرقت من البـاب لتطيح براس تمثال من المرمر لـكيوبيـد ، وتهوى الى الارض ، وراحت الرأس تتدحرج على السلم المغطى بالسجاد ، حتى اسـتقرت تحت قدمي والدى ومستر « بستيتيود » والسـيدات الاخريات .

أما والدتي فقد وقعت مغشيا عليها بين ذراعي مسز بستيتيود ، وأما الرجال فقد صـعدوا السلم وهم يهدرون . وكنت أنا و « فيرنون » نقف وقد استقر المسدس تحت اقدامنا والدخان يتصاعد منه .

وصاح ضيفنا :

« ما معنى هـذا الصـوت القاصف يافيرنون ؟ .

وكان فارسي البطل فيرنون يقف كما لو كان هيكلا مربعا متساوى الاضلاع ، وراح ينظر فى عيني والده . يا الهى ، ان قلبى يدق بعنف ! وسمعته يقول :

« عفوا يا والدى فأنا لا أستطيع أن أكذب ، انها هى التى أطلقت الرصاص » . وكان يشير الى وهو يتحدث .

مرت فترة من الهدوء المخيف ، أمرنى بعدها والدى أن أنصرف الى حجرتى ، وترامى الى سمعى صوته وهو يقول :

« أيتها الحقيرة ، لقد كدت تقضين على حياة هذا الصبى النبيل ! اغربى عن وجهى والزمى حجرتك ! »

كان هذا هو مجمل حالنى فى اليوم السابق ليوم عيد الميلاد : نصيبى من الحب وهم تلاشى سحره ، ونصيبى فيما عداه ، فتاة مغدور بها ، كسيرة الخاطر ، مكروهة منبوذة . كل ذلك قد تم فى ساعة وخمسة وأربعين دقيقة !.. ان قصة البعث لتولستوى لا تعد شيئا مذكورا ، عندما أفكر فيها ، الى جانب هذا الذى حدث لى . آه لو ان والدى الذى أحط من قدرى قال :

« لقد كدت تقتلين نفسك ! » ، لما أحسست ببعض ما شجانى وعذبنى من قوله . الا ان تفكيره انصرف أول ما انصرف الى ذلك « الصبى النبيل » ، الحقود. لقد كنت أعلم ان والدى كانا يتلهفان على ان يكون لهما ابن ، ومن هنا كان احساسى بأنى كائن غير مرغوب فيه ، أو فى القليل شر لابد منه ، أو قد أكون خيرا من لا شىء ، لقد كانت عضلات وجهى ترتجف من أثر ارتداد المسدس ، الى جانب احساسى بأنى غير محبوبة

من أحد ، ولا يهتم بشأني انسان .

أخذت أدغدغ أنفي لعلني عندما أرى عيني مغرورقتين، فانني انخرط في البكاء . ثم نشجت ونهنهت مرة أو مرتين ، لم ألبث بعدها أن استقر رأيي على مغادرة المنزل في الحال وبغير توان .

لم يكن في استطاعة أحد أن يثنيني عن عزمي أو يحملني على التردد . وما ان بلغ بي التصميم هذا الحد ، حتى ارتديت اكثر أثوابي دفئا ، وتدثرت بمعطفي ذي الاكمام المصنوعة من الفراء ، ولبست حذائي ذي الرقبة الطويلة ، ثم كتبت كلمة وداع بأسلوب رومانسي ، قلت فيها :

« لا تبحثوا عني ، فاني رحلت عنكم الى الابد ، والامضاء ، ابنتكم المخطئة التي ترجو الصفح : بيلا . »

ملحوظة :

أرجو العناية بكازيمير · وكان كازيمير هذا هو عصفوري الكنار .

وكان لدى صندوق للنقود على صورة بنك ، له اعمدة يونانية الطراز ، وبوابة من البرونز ، كنت أضع فيه كل العملات الذهبية التي أحصل عليها كهدايا في المناسبات . وكنت أدرك ان مشبك الشعر يمكنه فتح قفل الصندوق . ان الاختلاسات الصغيرة التافهة تبدو طبيعية في نظر كل النساء ، كما كنت أعتقد أن جميع الجرائم يمكن أن ترتكب بواسطة مشبك الشعر .

وهكذا انسللت بكيس نقود مثقل ، وقلب مثقل ، وجاوزت في طريقي باب مربيتي ، وهبطت السلم المغطى

بالسجاد ، ومرقت من خلال الممر المعتم حتى بلغت المطبخ الذى كان يتصاعد منه بخار يحمل نكهة أطباق عيد الميلاد ، ثم جاوزته واخترقت مخزن الانبذة ، ودلفت من بابه الى الخارج ، حيث كان يوجد فناء الدار الخلفى .

وكان كل ما يقع عليه النظر يبدو قاتما بعد ظهر ذلك اليوم البارد ، وكانت المدينة قد تحولت الى حال من التجمد من أثر عاصفتين ثلجيتين تعاقبتا عليها فى فترة وجيزة . وألقيت بتحية الوداع لشجرة البلوط العجوز التى كانت تقف آنئذ عارية من أوراقها تحت السماء ، ومرقت من الباب الخلفى للدار لتتلقفنى الدنيا الباردة ، ولكن الى أين أمضى ؟ ..

لو انك سألتنى هذا السؤال قبل ثلاث ساعات مضت ، لاجبتك بأنى ذاهبة الى بيتسبرج . اما الان، فاذا كان وطن ذلك الصبى الحقير فيرنون هو الغرب ، فسوف أمضى الى الشرق . ولكن أين يكون الشرق ؟ لا وجود لشمس فى السماء لاسترشد بها ، ولكنى كنت أعلم بصورة عامة اننى اذا نظرت ناحية الشمال، فان الشرق يكون الى أقصى اليمين . وهكذا اتجهت الى اليمين ، وأسرعت وأنا أمضى بين الوحول ، وقد دسست أذنى فى فراء ياقة المعطف ، وكفى فى فراء الاكمام .

وكنت أظن اننى ربما عثرت على مضرب من مضارب الغجر ، فأرتحل معهم وأنعم ببداوتهم الطليقة . وكان الظلام قد انتشر فى السماء ، وغدا وكأنه يتوعد المارة ، أما الطرقات فقد أخذت تضيق ويخفت الضوء فيها .

ولم يحدث لى من قبل ان كنت فى الطريق وحدى ، غير انى لم يداخلنى خوف ، وان كنت قد أحسست بغرابة ما حولى . كنت ارى النساس ترتدى ملابس خشنة ، كانت لا تتناسب فى خفتها مع هذا الصقيع . كما بدا لى ان سلوكهم كان معيبا ، وان الفاظهم كانت فظة غليظة . ولم أر فى أيديهم قفازات ، ولكنهم كانوا يضربون كفا بكف استجلابا للدفء . وكانت تتصاعد مع أنفاسهم أبخرة من شدة الصقيع . وانى لأذكر كيف ان أحد المارة أشار الى قبعتى الصغيرة ذات الفراء وأرسل صفيرا طويلا ، اتصل به صفير كان يأتى من بعيد ، أطلقه سائق قطار كان يجتاز تقاطعا .

وكنت أسمع من قريب صوت قعقعة آلات أحد المصانع ، كما كنت أرى وهجا ينعكس على صفحة السماء . وكان فى استطاعتى أن أشم رائحة النهر . وأخذ كل شىء يقع عليه نظرى يضيق ويضيق حتى يتضاءل ويتلاشى . وعندما هبت الريح من ورائى ، خيل الى اننى ألف معها وادور بنفس سرعتها .

وعلى الرغم منى وجدتنى أعدو بأسرع ما أستطيع بين صفين من ثلوج شهباء مخيفة . ولم ألبث طويلا حتى توقفت لالتقط انفاسى . ثم بدا لى انى فقدت طريقى وانى أضرب فى تيه .. ذلك انى كنت قد قطعت مسافة طويلة فصلتنى عن أنوار المدينة . وكنت أرى أكواما من الفضلات ، ودخانا كئيب المنظر ، وعششا وأكواما تقاربت ، حتى لتكاد تتلاحق كما لو كانت تستجلب من قرب الجوار نزرا من الدفء .

كانت هذه الأكواخ المتداعية تنبى عن رقة حال

اصحابها وخصاصتهم . وكنت وانا أعدو الاحظ أن الناس كانوا يحملقون فى دون أن يعترضوا طريقى . أهذه هى الدنيا الواسعة العريضة ؟ ياعجبى ! انى لا أحس منها الا بآلام كوخز الأبر من شدة البرد، ومن ضيق عند التنفس بسبب الدخان المنتشر. وكان قلبى ينبض بسرعة ، حتى بدت لى دقاته كأنها مطارق مسبك . بينما صوت فرقعات لا ترحم تصدر عن سوط سائق لعربة تحمل أكداسا وتأتى من ناحية النهر ، الى جانب صوت وقع خطى ضخمة لشىء لا يبين يخرج من الاوحال ، وان كان يمكن من وقع الخطى ، تخيل ضخامته .

وبينما أنا وسط هذا التيه المخيف الذى يشبه الكابوس ، اذ بخيط من نور الفسق يتسرب من بين العتمة لارى على شعاعه ، وعلى مقربة من راسى ، هيكلا لامرأة شابة ، ذات شعر اسود أشعث ، ووجه أبيض مهتاج الاسارير ، تحمل بين يديها لفافة مستطيلة الشكل . وكانت الشابة تبدو فى حال سىء من الفقر المدقع ، حتى أن أنفاسها كانت تخرج منها فى وهن وهزال . كانت هى الاخرى تجرى مثلى ، ولكنها ما أن رأتنى حتى توقفت . ولم تلبث حتى ألقت اللفافة بين ذراعى وهى تقول :

« خذيها ، خذيها » . وكانت الالفاظ تخرج من شفتيها محشرجة كما لو كانت ثلجا يتحطم أو ينسحق. وعندما اختفت عن نظرى وجدتنى أحمل مولودا صغيرا جداً ، يلتف فى خرقة من ملاءة رثة بالية .

ضع نفسك مكانى . لقد كنت فاقدة الحس من اثر

الارتباك . فقد انحصر تفكيرى فى امر نفسى وما أنا فيه من هم وكدر ، واذا بى أرانى فجأة وبين يدى مولودا ! لا تضحك . فالامر بالنسبة لى أصبح مأزقا مريعا من ناحيتيه الواقعية والادبيــة . ولعلك فهمت ما أعنيه. ذلك ان النشء فى عصرنا ، لم يكن على ما هو عليه الان فلا مسئولية تقيــده ، ولا شــفقة تهز أحاسيســه أو مشاعره ، كما لم يكن هناك ما هو قائم حاليا من جمعيات وهيئات تحمل عبء المسئولية ، وتعفى الغير من كل شفقة أو حنان .

تذكرت أنشودة كانت مربيتى « ايلونكا » تغنيهــا لى ، وكانت كلماتها تجرى على هذه الصورة أو قريبا منها :

كونى عــذراء ، أو كونى زوجــة
أو كونى امرأة ، لاناديك بيــا أمى

***

وأنت يا من ولدت فى مزود ، أو ولدت على سرير
أنت اخى ، مثلك فى ذلك مثل كل رجل فى هذا الوجود

***

وكل من ولد فى مزود ، أو ولد على سرير
هو أولا وأخــــيرا ، من خلق الله

***

كانت مربيتى تنشــد هــذه الاغنية بطريقة خاصة ، وبنغمة رتيبة ، رأيتنى أحاكيها وأرتلها لهــذا الوليــد الصغير ، الذى استقر بين ذراعى فى راحة هيــأتها له باستخدام فراء كم المعطف كوســادة له ، وبرقع ياقة المعطف ذات الفراء لتــزوده بالدفء . كنت أعلم ان

الأطفال يعيشون على تناول اللبن ، ولكن لم يكن عندي من اللبن ما أقدمه للوليد . وكنت أحمل فى جيب من جيوبى قطعة أو قطعتين من سكر النبات لم البث أن قدمتها للصغير الذى راح يستحلبها وهو راض بما يستشعره من هـذا الدفء غير العادى ومن الاطمئنان الى حركتى الوئيدة فى السير التى لم ينزعج منها . لقد توقفت مرة تحت مصباح أصفر الضوء بدا لى كأنه زحل فى شكله المستدير ، ولكنه كان كافيا لاتبين على نوره ورقة معلقة بدبوس فى ملاءة الطفل . كانت كلمات الورقة تقول :

« أيتها النفس العطوفة أيا ما كنت ، احفظى هـذا الوليد اليتيم ، انه وليد شجني وأساي ، وليس فى استطاعتى أن أستبقيه » .

وعلى الرغم من تسلل خيوط ذات ألوان حلوة الى عقلى ، كان يمكن أن تصبح نسيجا لقصة تكتسب ذيوعا وشهرة ، الا اننى لم أكن أخلو من حصافة غريزية . ذلك أن قدرتى على ان أحفظ هـذا المخلوق وأرعاه ، وما ينبنى على ذلك ، شيء جميل للغاية ، وامر عظيم القدر . ولكن كيف ؟ .. ان كبريائى تمنعنى من ان أعود الى أهلى وحدي ، فكيف أعود ومعى هـذا الوليد ؟ .. لقد نفضت التراب الذى علق بقدمى من ذلك المكان . وانه لايسر لى أن أموت من أن أعود اليه بمحض ارادتى ، حتى ولو كنت وحدي . وعلى أى حال ، فان العودة من بين الثلوج وأنا أحمل وليدا لا والد له ، أمر يصعب مجرد التفكير فيه .

ان بطلة قصة « المحكوم عليها بعقوبة تجاوزت حد

الذنب » وهي قصة كنت قد سرقتها من طاهية منزلنا لاقرأها خلسة ، قد بعثوا بها الى الدير ، لسبب مشابه لما أنا فيه الان . ولما كنت عام ١٨٩٩ ، فى سن الثامنة ، فلم أكن قد تمرست آنذاك بتجارب الحياة ، كمن هى فى مثل تلك السن من بنات هذا العصر الحالى . ولهذا فقد رأيت بعين خيالى صورة أمى وهى تبكى فى منديلها الصغير ، بينما يطلب منى والدى بشدة أن أعلن اسم والد الطفل . لا ، لا ، لا ، لن أبوح ، وان كان ذلك الحقير « فيرنون » هو المسئول أدبيا عما أنا فيه .

كنت افكر فى كل ذلك وأنا وسط الثلوج ، وكانت تدغدغني سعادة مأتاها ما قمت به من مغامرة لا بأس بها . لقد اقتضى الامرمن بطلة قصة « المحكوم عليها بعقوبة تجاوزت حد الذنب » ، التي سلفت الاشارة اليها ، لتصل الى ما كنت أنا فيه من حرج وحيرة ، أن تقطع خمسة عشر فصلا من القصة . بدأت أشعر بأن البرد أخذ يتخلل كل طبقات ملابسى الدافئة ، كما أخذت أحس بالجوع . أما الدنيا فقد بدت فى نظرى قفراء جرداء ، تمتلىء بأناس كأنهم الغيلان ، وقد تخيلتهم كأنهم قد جمعوا كل الخرق البالية ، وسلخوا كل قطط بودابست استجلابا لما يبعث الدفء من دثار يلتحفون به ، ثم راحوا ينزحون كل ما احتوته المصابيح من زيت ، طلبا لمشروب قوى يتجرعونه ، تاركين المدينة وهى تسبح فى الظلام . وكنت قد توقفت مرة أمام مطعم شعبى رخيص ، من أجل أن أشم رائحة الطعام ، دون أن أجسر على الدخول اليه . وكنت بحكم

الفريزة أحذر من أن يرى أحد رواد المكان ، ما كان يحويه كيس نقودى من ذهب . وكانت معى بعض عملات صغيرة فى جيب من جيوب ردائى الذى أرتديه تحت المعطف ، الا ان استخراج هذه العملات يقتضينى ان أضع الوليد على الأرض ، وهو أمر ترددت فى الاقدام عليه ، بعد أن رأيت امارات الراحة على وجه الوليد ، وهى راحة كان يستمدها من مضجع لين ودفء مستحب .

وبينما أنا فى وقفتى ، واذ بشابة ذات وجه فى لون البنفسج الزاهى ، وشعر أصفر ، وشفاه قرمزية ، تخرج وقد تعلقت بذراع رجل بدين يرتدى معطفا ناصعا براقا ، وقبعة من القطيفة الخضراء ، وكانت بين يديها ورقة تحمل فيها « سجق » ساخن ذا رائحة شهية . وما أن لمحتنى وأنا فى موضعى الى اليسار من ضوء خافت ، حتى سمعتها تقول :

« أوه .. يا للمسكينة اللطيفة » .. ثم أعطتنى قطعة من ذلك « السجق » وقبلتنى قبلة ساخنة ، ذكرتنى رائحتها برائحة الموقد الذى يشتعل بالكحول لتسخين مكاوى الشعر عليه . ثم ناولتنى كرونا من الفضة ، أخرجته من كيس نقودها المصنوع من الخرز ، قبل أن يجذبها صديقها لينصرف بها نحو غايتهما .

وعندما هممت بالمسير ، وأنا آكل « السجق » ــ الذى لم أذق شيئا شهى الطعم مثله ــ أخذ الوليد فى العويل . عند ذلك فزعت وجزعت . ولكن يشاء الحظ أن ألمح على مبعدة مائة ياردة أو تزيد ــ وفى اتجاه لا أعرف مؤداه سوى اننى كنت أجس الحائط الذى

أسير بمحاذاته ، الى يميني ــ أن ألمح عربة مغطاة تقف أمام محل لبيع الزيت والخشب والحطب .

وكان الحصان المشدود الى « عريش » العربة فى حالة بالغة من الضعف والهزال ، وقد انتابته رعشة وتعرى ظهره الا من بعض خرق كانت تكشف عن عظامه . وفى مؤخرة العربة جلست امرأة بدينة ، كانت فى حالة مرحة وبين ذراعيها طفل نحيل توليه كل عنايتها .

كنت أراقبها عندما بادرتنى بقولها حين رأتنى :

« أى شيطان قذف بك الى هنا ؟ .. »

قدمت لها قطعة النقود التى اخذتها من الصبيـة ذات الشعر الاصفر وأنا أقول :

« هلا تفضلت وسمحت بارضاع هـذا الوليـد بما يساوى هذا البكرون ؟ »

حملقت السيدة فى وجهى وما لبثت أن انفجرت فى الضحك وهى تقول :

« لولا اننى أرى بعينى قطعة النقود لظننت أن زوجى يمزح كعادته . ولـكن ، ما الذى جرى ! هل الطفل ظمآن ! .. ناولينى هذا الوليـد لاعطيه مقدارا من اللبن يساوى كرونا ... ثم تلاحقت ضحكاتها وهى تقول :

« كم كنت أغدو ثرية لو انى تعاملت على أساس هذا السعر ... »

وعنـدما سألتنى عن اسمى أجبتها وأنا أكذب :

« اسمى بيلا بستيتيود » .

« اسم عجيب ، لم أسمع بهذا الاسم فى أى ناحية مما حولنا .

من أى بلد أنت ؟ ..
« بيتسبرج » .
ثم راحت تسألنى وهى ترنو الى الوليد :
« وهل هذه شقيقتك ؟ »

اختى ! .. لقد راعنى ذلك ، دون أن أعلم السبب . فقد كنت على يقين من ان هـــذا الوليـد اليتيم ابن الاسى والاشجان ، انما هو صبى . فلقـد كانوا هكذا جميعا فى قصص طاهيتنا .

أجبت دون أن أرفع راسى :
« لا ، اننى أعتنى بها فى غيبة أهلها » .
«وما هو اسمها ؟ »
أجبتها وأنا فى حيرة وارتباك :
« أرابيلا » .

حسنا يا صغيرتى . أنا لا احب ان أراك متجمدة فى هـــذا الصقيع .

أين تقيمين ؟ .. فسوف نقوم بحملك الى منزلك حالما يعود زوجى من قضاء شئونه .
فأجبتها :

« انى أشكر لك تفضلك، فان المنزل قريب من هنا »
وعندما ناولتنى الطفلة كانت تقول :

« كما تشائين . هاك الطفلة قد استوفت حقها من اللبن بما قبمته كرون ، مضافا الى ذلك رضعة للطريق. لكن عليك أن تحتـــفظى بنقودك . بارك الله لك فى قلبك الساذج . فعندى ها هنا ، ما يكفى لستة أطفال آخرين واهلا بهم اذا جاءوا » . وكانت وهى تتحدث تدق على ثدييها وتضغط على كفى وهى تودعها العملة

الفضية . ثم راحت فى ضحك متواصل تتخلله عبارات مما قلته لها عن ارضاع الوليد .

تركتها فى ذلك الضحك الصاخب واسرعت ومعى الوليد الصغير . ولكنى لن أقول بعد الان الوليد الصغير بعد أن صح فى ذهنى انه طفلة ، لاعتقادى بأن كل وليد غير مرغوب فيه من والديه ، لابد أن يكون طفلة . انها الآن ارابيلا الجميلة . وكنت أنطق اسمها بنغمة من يحادث دمية لا حول لها ولا حيلة . وكانت أرابيلا تحرك رجليها كما لو كانت تركب دراجة . يالها من طفلة ذكية . لعلها فهمت ما دار فى خلدى ، فتحركت لتكذب ظنى .

كان شعورى بامتلاك هذه الطفلة ، يزيد من حرصى وخوفى عليها ، ومن الرغبة فى انزوائى معها فى وحدتى الا ان حالتى قد ساءت من شدة البرد وفرط التعب وعصف الرياح . ومن بعيد كنت أسمع دقات ساعة تشير الى الوقت . ولكن ماذا يعنينى من دقات الساعة الا انها دقة تتلوها دقة . فلم يعد من معنى عندى للزمن وللساعات . وبهذا انتهى تفكيرى فى أمر الساعة والزمن . غير أن النعاس كان يزحف نحوى حتى بدا لى الوحل الذى انعكس عليه ضوء الفسق شيئا على قبح منظره مريحا ، تمنيت لو انى استلقيت فوقه ، واستغرقت فى النوم ، وادركت حينذاك كيف ان الساحرات فى القصص الخرافية ، كانت تغوى وتفتن ضحاياها ، عندما يكون البرد والجوع قد أوهنها واخذ منها كل مأخذ . ولم أكن أبغى شيئا سوى النوم ، الذى اعتبرته جريمة لا تغتفر فى حق الطفلة . فكيف

يخامرني هـذا التفكير الشقى بالاستسلام الى النوم ، ومعي اليتيمة الصغيرة ارابيلا ! ذلك ان النوم فى هذا الصقيع ـ كما سمعتهم يقولون : معناه الموت المحقق.

بهذا الادراك والوعى ، كنت احس بأن على أن ابحث عن مكان أستريح فيه بعيـدا عن مخالب هذا الصقيع. ولم ألبث طويلا حتى شملنى احساس بأنى أقترب من ملجأ تبين انه دكان حداد له سقيفة ينبعث من مدخنتها تيار من الهواء الســاخن . وكنت فى موضعى هـذا ، أشـبه ما أكون بالطيـــور التى تتجه فى طيرانها نحو الجنوب طلبا للدفء . كنت أجتـاز فى طريقى حظائر للبط ، واتعثر فى سـيرى فوق الحشـائش التى علاها الثلج ، وأمضى فى سبيلى وسط قطع مبعثرة من آلة معطلة فوق الطريق ، كانت تتراكم عليهـا كتل الثلج ، حتى بلغت فى سيرى كوخا آيلا للسقوط ، قد سدت نوافذه خرقة من الخيش بدلا من الزجاج . ومن خلال مدخنة علت هـذا الـكوخ ، كان الدخان يتصاعد فى وهن ينبى عن ان النـار التى فى الـكوخ قد أوشكت على أن تخمد ، لولا الهواء الذىكان يساعد على تحريك الدخان . وكان الباب ينفرج عن فتحة ضيقة يســاعد على تثبيتها سير من الجلد . ولمـا كان المـكان ساكنا فقد مرقت الى الداخل ، حيث كان الهدوء مخيما والمكان دافئا . ورغم انى لم أر أحدا الا اننى كنت أشم رائحة اناس فى ناحيــة منه . بل لقد رأيت ضوء نار واهنة ، ولمحت خرقة فى آنية فخارية بها شحم ، كما تبينت الى جانب ذلك سندانا ومنفاخا .

كان التعب قد أخـذ منى مأخذه عندما وقع نظرى

فجأة على امرأة تجلس الى جانب النـــار . ومن تردد انفاســـها تبين لى انها نائمة . وكان يرقد على ركبتيها صبى صغير ، كان هو الاخر يغط فى نومه .

اخذت أسير على أطراف أصـــــــابعى ، لا احتراما لنومهما فحسب ، ولكن ، وهـذا هو الامر الهام ، انهما اذا رأيانى ، فربما أمرانى بمغادرة المـكان . اننا نعيش فى عالم تغلب فيه عوامل القسوة . ومن ذا الذى يحيط بكل ما يدور فى جوانبه ! مضيت أجمع أكواما من القش الدافىء ، وضممت أرابيلا الى صدرى ، وجعلت المعطف يلتف حولها ليحميها ، واستسلمنا للنوم .

وكنت أحس من نوم الطفلة انها لابد وأن تكون طفلة هادئة وديعة ، كما خيل الى انها قد تكون أفرغت كل صراخها وعويلها قبل أن تعترض طريقى .

لم أكن أدرى كم من الوقت مضى ، عندما أيقظتنى أصوات قريبة ، وكانت الطفلة ما تزال نائمة . رأيت آنئذ شمعة موقدة فى زجاجة فارغة ، توسطت قدرا من الفخار ، وعلى ضوئها رأيت رجلا ذا منظر يثير الرعب والفزع ، حتى خيل لى ، ولم يكن الامر يخلو من قدر من متعة المغامرة ، اننى وقعت فى قبضـــة عصابة من اللصوص والمجرمين ، تماما مثلما كان يجرى للأطفـــال الضالين فى القصص والروايات .

لقد كان فارع الطول ، عريض المنكبين ، ذا شـــعر أحمر غزير ، وذقن بدا شعرها الاحمر مجعدا وقصيرا . كان ينفض عن رأســـه وملابسه ما تساقط عليهـــا من الثلج ، مثلما تفعل الدببة . ولم يكن يرتدى معطفا ، ولا يضع على جســـده سوى قميص وسروال . اما

حذاؤه الذى كان ينتعله فقد كان طويلا . ولقد ذكرنى منظر السلاح الذى كان يحمله بصورة مماثلة ، وردت فى قصـــة من قصص العصابات التى قرأتها . وكانت احدى يديه معصوبة برباط من قمبـاش متسخ ، أما الاخرى فقد كانت تحمل لفافة من ورق رمادى اللون وحزمة من كتل الخشب ألقى بها تحت قدميه .

كانت المراه تتحدث فى صوت خفيض حتى لايستيقظ ابنها وتقول لزوجها :

ما هـــذا ؟ هل بعت معطفك ؟ ..

اخذ الرجل يجلجل بضحكة أشـــبه ما تكون بقرقعة برميل يتدحرج فوق احجار صلبة وهو يقول لها :

اى نعم يا زوجتى ، والقلب كلما كان دافئا ، كما يقول المثل ، فان حرارته تمد الجسد بدفء تعجز من بعثه فروه الإغنام . ومن الخير ان يحس المرء بالدفء النابع من داخله عن أن يحسه بدفء ياتيه من الخارج . ثم راح يشير الى اللفافة التى يحملها فى يده المعصوبة بالاربطه وهو يقول :

« هنا زجاجة من النبيذ وبعض السجق ولحم لعمل الشوربة وبعض البصل . وهــذا كل ما استطعت ان أحصل عليه ، اذ أن الأسعار ما زالت على ارتفاعها . ولعلك سمعت عن المثل الذى يقول : من لم ير النمر فليشاهد قطا ، ومن لم ير لصا ، فعليه ان يعامل جزارا جشعا ، وقد اشتريت كذلك بعض الخشب وشمعة »

« ولـكن ما هــذا ؟ »

اخذت الزوجة تسأله وهى تدس يديها فى داخـــل اللفافة وبين محتوياتها حتى أمسكت بنجمة صغيرة ذات

زخرف وبهرج رخيص ولفافة من ورق ملون مخروطية الشكل .

أجاب الزوج :

« أما النجمة فهى زينة لشعرك ، وأما الحلوى فهى للصبى . ذلك ان « المسيح الطفل » لن يمر ببابنا .

ولما تهيأت الفرصة للزوجة لتتكلم قالت :

« ولكنى لا أرى أثرا لدخان « لغليونك يالاجوس؟»

قال الرجل :

« سوف تشفى يدى عما قريب ، وعندما أعود لعملى سينوفر لى ثمن دخان غليونى » .

عند ذلك ادخلت الزوجة يدها فى جيبها واخرجت منه لفافة وراحت تقول له :

« هاك دخان لغليونك مع تمنياتى لك بالعيد السعيد»

فقال لها :

« ولكن أغلب الظن انك حرمت نفسك من تناول الخبز ليتوفر لك ثمن الدخان » .

فأجابته بقولها :

« لا عليك . فقد تناول الصبى خبزه . وهل يعيش الناس على الخبز وحده ؟ » .

لم ينطق الرجل بكلمة ، ولكنه ربت على خد زوجته بيده الضخمة .

فى هذه الاثناء استيقظ الصبى وراح يجرى نحو والده وهو يسأله :

« ماذا أحضرت يا أبى لعيد الميلاد ؟ »

قال الرجل :

« لقد تيسر لى بحمد الله أن أحضر شيئا . وانتظر حتى ترى بنفسك » .

فعاد الصبى يسأل :

« وماذا أحضرت لماجدة فى هذا العيد ؟ »

اجاب الرجل :

« ان اختك يابنى فى السماء . وهى تستمتع الان بالدجاج ، والبط ، والبودنج ، والفطائر ، والموسيقى الجميلة ، وكل ما هو حسن من كل شىء » .

« بودى يا ابى أن اذهب اليها فى هذا العيد ؟ »

« ان الرحلة يابنى شاقة على الاحياء الاشقياء ! »

التفتت الام للصبى وهى تقول :

« دع أباك الان يالازلو وسوف ننعم الليلة بوجبة سجق جميل عند العشاء » .

« وهل لدينا أوزة للفداء غدا ؟ »

« لا يابنى . ولكن سيكون لدينا ما هو أشهى من الاوزة . انها وجبة شهية ساخنة جيدة الطهى ! »

« وهل سأضع حذائى الى جوار المدفئة هذا المساء ؟ »

فأجاب الاب :

« طبعا ياعزيزى لك أن تفعل ذلك » .

وهنا قال الصبى وهو مستغرق الفكر :

« ولكن فى حذائى ثقبا » .

فأجاب الاب :

« لا عليك يابنى . ضع قبعتك فالامر سواء ، فالحذاء أو القبعة أو الجورب كلها تفى بالغرض . وطالما كان هناك ايمان فكل شىء يتم على خير وجه » .

« هل سيكون لى أخت صغيرة ؟ »
فأجابت الام :

« اذا أرسل الله لنا طفلة فاهلا بها على الرحب والسعة » .

***

كانت النار التى راح الرجل يلقى الحطب فيها قطعة بعد أخرى قد توهجت آنذاك وبعثت الدفء فى المكان . وكنت ما أزال راقدة دون أن يظهر لى ظل على الجدار . أخذ الحداد الطيب وزوجته وطفله يتناولون عشاءهم من الخبز والسجق ويشربون قليلا من النبيذ ، وبعد أن انتهوا من طعامهم ، قال الرجل لزوجته :

« انى أراك متعبة والصبى فى حاجة الى النوم وانا مثله بعد سير طويل وسط هواء بارد منعش . ولعل للاكل الطيب الشهى والشراب الهنيء أثره . وغدا نستقبل عاما جديدا ، وهو عيد كذلك ، فلنذهب الان الى النوم » .

عند ذلك قاموا من على المائدة وراح الصبى يضع قبعته بعناية الى جوار المدفاة ، ثم مضوا الى ما وراء فاصل فى الحجرة اتخذوا منه قاعة للنوم ، وقد أخذوا معهم الشمعة .

فى هذه اللحظة قر قرارى على أمر كان يتحتم على عمله . زحفت على ضوء النار المشتعلة فى المدفاة ، ووضعت أرابيلا برفق على الكرسى المنخفض الذى كانت تجلس عليه المراة قبل ذهابها الى قاعة النوم ، اخرجت من جيبى قلمى الرصاص الذى أحرص دائما على

حمله وخططت به بضعة كلمات على ورقة ألصقتها بدبوس فى ملابس الطفلة ، كانت تحمل هذه الكلمات « الطفلة اسمها أرابيلا وهى تحب شرب اللبن . ولما كنتم أناسا طيبين فانكم تستحقونها وهى كذلك جديرة بكم ولعلها بذلك تنعم فى ظل رعايتكم » . ثم أفرغت فى هدوء كل ما كان فى كيس دراهمى من رأسمال ، كان يتمثل فى ثلاثمائة بنجو من الذهب ، ووضعته جميعه فى قبعة الصبى .

بعد ذلك أخذت سمتى نحو الباب الذى دلفت منه الى الطريق العام ، وأغلقت من ورائى الباب ، دون ان أحدث صوتا ، وانطلقت أعدو .

وبعد مضى نصف ساعة وجدتنى وجها لوجه أمام رجل من رجال البوليس لم يتوان عن أن يمسك بى وهو يقول :

« انك وأمثالك من الاطفال الاشقياء يشغلون خواطر أهليهم ويتسببون فى شقائهم » .

فرحت أسأله :

« هل صحيح ما تقول ؟ »

أجاب الرجل :

لقد كان أهلك فى حالة بالغة من التعاسة حتى انه لم يبق فى المدينة شرطى دون أن يشترك فى البحث عنك ، بعد أن رصد والدك جائزة سنية لمن يعثر عليك » .

قلت :

« أتقول رصدوا جائزة لمن يعثر على ؟ » .

أجاب الرجل :

« نعم .. هذا ما قلت »

عند هذا الحد انطلقت فى البكاء ، وكان هذا هو شأن أمى وأبى عندما عدت الى الدار ، وكدت أختنق من توالى قبلاتهم التى كانوا يمزجونها باللوم العاطف والعتاب الحانى . أما الخدم فقد تجمعوا حولى ووجوههم تطفح بالبشر والسرور والانفعال . وكذلك كان شأن مربيتى الانجليزية التى كانت محمرة الجفنين من فرط بكائها . أما مرضعتى فكانت تربت على برفق وهى تصحبنى لتغيير ملابسى واخذت تقول لى فى الطريق :

« لو تأخرت نصف ساعة أخرى لفاتك موعد قداس نصف الليل » .

فسألتها :

« ولكن كم من الوقت مضى على غيابى ؟ »

أجابت :

« ثماني ساعات قاتلة أيتها الشقية الصغيرة » .

كنت اظن اني امضيت على اقل تقدير ثلاثة أيام كاملة . وهكذا ... تيسر لى أن أذهب الى قداس عيد الميلاد . وكان الباريتون اليكسيوس جاربيليون يؤدى نشيد عيد الميلاد ويردده معه أفراد جوقة المنشدين « الكوراس » . وعندما عدنا الى المنزل كانت شجرة عيد الميلاد تتوسط الصالة ، وقد مررنا بها ونحن فى طريقنا الى أسرتنا . وكنت أحس بلذة انتظار الوقت الذى أتلقى فى نهايته ما أعده لى أهلى من هدايا .

ولم تكن سعادتى فى يوم من الايام أبلغ من تلك الساعات .

تنهدت بيلا بارلى وهى تقول :

« لقد كان هذا ما كان .... »

فسألتها :

« وماذا بعد الذى كان ؟ » .

أجابت :

« انني الان سعيدة . ولو انك استشعرت السعادة لغدوت سعيدا » .

ورحت أسألها :

« ولكن ماذا حدث للحداد وزوجته وصبيهما والطفلة أرابيلا ؟ »

أجابت بقولها :

« لقد تصادف ان كنا نتنزه بعد تلك الليلة بعام كامل فى سيارتنا التى كانت تجوب بنا طرقات الحديقة العامة المترامية ، واذا بى ألمح عائلة الحداد ، وكانت امارات اليسر والرخاء قد انعكست على صفحات وجوههم التى بدت هانئة مستبشرة . ومنذ ذلك الحين لم أعد أهتم بشأنهم .

أما ما كنت اتوق حقا الى مرآه ، فهو وجوه هؤلاء القوم عندما استيقظوا على صراخ أرابيلا ، ثم عثورهم على ما فى قبعة الصبى الصغير من ذهب راح يتلألأ سناه فى ضوء نار الموقد .

انني كلما تخيلت هذه اللحظة ، اشتملتنى سعادة غامرة . وما يزال هذا الاحساس يعتادنى فى الحين بعد الحين .

ان مظاهر السعادة فى هذه الحياة ، لا نراها الا بعين التوهم والتصور والخيال . ذلك اننا نتمني السعادة

التى نراها بين ايدى الآخرين ، ونود لو كنا مكانهم ننعم بما به ينعمون .

ولو جاءتنا نفس هـذه السعادة ، لما احسسنا بها ولا شعرنا بما تسبقه من هناءة ونعيم .

والان ... اسال الله لك أن تهنأ بالسعادة والتوفيق فى عامك الجديد الذى أدعوك الى أن تحتفل به وتنعم بمسراته .

ملك هوايته جمع الساعات

تاليف : جيرالد كيرش

هنــاك من الخفــايا ما هو من قبيل ما أسر لى به « بوميل » ، من شــأنها أن تخترق حواجز العقــل لترسب فى قاعه ، وتأبى ان تزايله أو تريم عنه . فانا اذا ما أنبأتك نبـأ ذلك الملك واسمه واسم مملــكته ، فانك سترفع حاجبيك الى أعلا ، وتخفض فــكيك الى أسفل ، بل ومن المحتمل جدا أن تلعننى بوصفى أحــد المحتالين الماكرين ، أو أحد المهرة من الكاذبين البارعين.

لقد التقيت « بالــكونت دى بوميل » فى كازينو مونت استوريل فى البرتغال . وفى الوهلة الاولى ظننت انه من المحتالين ذوى الجراة ، الذين يتسربلون برداء الحياء المفتعل .

ذلك ان « الــكونت بوميل » عندما خسر على مائدة الروليت كل ما كان معه من مال ، رأيته يقدم لى ساعته على سبيل الرهن مقابل ألف اســكودوس أو ما يعادل عشرة جنيهات استرلينية ، لشــعوره المغامر بأن الحظ ســيواتيه ويتحول اليه . وكنت أقدر ان مثل هــذه الســاعة تســاوى فى انجلترا فى ذلك الحين مايزيد على هــذه الجنيهــات العشرة . ومع ذلك فقد ناولتــه ما

طلب من مال ، وراح بالفعل يربح ويربح حتى ربح فى مدى ثلاثة أرباع الساعة احد عشر ألفا من الاسكودوس وعنـد ذلك توقف عن اللعب وأعاد لى ما كان أستدانه فى مقابل رهن ساعته مع عبـارات رقيقة من الشـكر البالغ ، مصحوبة بدعوته لى لتنـــــاول كأس من الشمبانيا . ولما قدم لى بطاقة الزيارة الخاصـة به ، رأيت مدونا عليها ما يلى :

« كونت دى بوميل ، صـــاحب كونيتا بوميل فى كاسكيس ، وفيلا بوميل فى لوزان بسويسرا » .

وفى معرض الحديث معا علمت منه أن الساعة التى ارتهنها تبلغ قيمتها أربعمائة جنيه استرلينى .

وهنا سألته :

ومن يكون صانعها ؟

فأجاب يقول :

أنا ..

قلت :

ان فيك ما حملنى على الظن بأنك رجل ماهر فى عمل تقوم به يداك .

عند ذاك مد لى يديه فوجدتهما شـفافتين ، لا أثر للدم فيهما ، وقد بدت عروقهما رفيعة قاتمة ، ومتشعبة كما لو كانت اجنحة حشرة طائرة .

فأجاب :

كان ذلك شأنهما منذ زمن ولى . اما الان فلا شىء من ذلك . فلقد أصابنى اضطراب عصبى ، وليس هناك ما هو أسوأ من هذا الاضطراب لمن كان له مثل مهنتى.

فاستدركت قائلا :

مهنتك ؟

أجاب :

أقصد صناعتي ان كنت تفضل هـذه الكلمة . ذلك انني كنت صانع ســـاعات . أما لقب الشرف الذي أحمله ، فقد منحنى اياه الملك نيكولاس نيكولاس الثالث. وعلى هـذا فانا لست نبيلا بالوراثة ، لانني في الواقع كنت سويسري الجنسية .

قلت له وقد تذكرت قصة ذلك الملك :

« اني أذكر الملك نيكولاس الثالث الذي كان يهوى جمع الساعات من كل حجم ونوع » .

فأجاب بقوله :

« أن مجموعة ساعات ذلك الملك كانت أجمل مجموعة في العالم » .

رحت أسأله :

« وانت مع ذلك بوميل ! اني بالطبع اذكرك . فان اسمك قد اشتهر بوصفك صانع ساعة الملك نيكولاس».

فأجاب الكونت بوميل وهو يبتسم :

« لقد كانت هذه الســـاعة لعبة أكثر منها ساعة ، اذا شئت الدقة في الوصف . فقـد كانت بها طيـور تقفز وتغرد وتضرب بأجنحتها في الفضـاء ، في حين كانت ميناؤها على هيئة نتيجة أوتوماتيكية تعمل آليا . وقد ابتكرت لها بارومترا يديره جهـاز خاص ، بحيث كانت فصـول الســنة الاربعة ، تظهر على المينـاء بالتتابع وفقا لما يتقلب على حالة الجو من تغيير . وكانت هذه الساعة معقدة غاية التعقيد . واني أفضل عليها الساعة التي ارتهنتها عندك هذا المساء »

فقلت :
أمن أجل ما بها من ذهب ؟
فأجاب :

ليس بها من ذهب سوى الفطاء . فهى ســـاعة بسيطة ولكن قيمتها فى انضباطها انضباطا يفوق كل حد . وهى محصنة ضــد الهزات والمــاء . ومع ذلك فان مظهرها لايبــدو أنيقا فى ظنى . وأنا الان وقد اعتزلت كل عمل، لم يعد يهمنى مرور الساعات ، ولــكن تعلقى بالدقة لذاتها ، حبب الى كل ما هو منضبط ودقيق . وهذا أمر يمكن ادراكه . ذلك انى لا أستطيع أن أعمل الان . فيدى كما ترى ، ليست ثابتة . ولهذا فانى شــديد الحرص على هذه الساعة لانها آخر ما بقى لى من كل ما صنعته . أما الساعات الاخرى التى صنعتها فقــد احتلت أماكنها فى المتاحف الخاصة والعامة ، وهو أمر يبدو فى نظرى كالمقابر بالنسبة للموتى .

وهنا سألته :

« وهل أنت الذى قمت بصنع التماثيل التى كانت تزدان بها ســاعة الملك نيكولاس ؟ انها تحف فنية غاية فى الدقة » .

فأجابنى :

« لا . لقد قام بصنعها فنان بلجيكى اسمه «أونوريه دى كوك » . وقد كنا نعمل سويا » .

فقلت معقبا :

« لقد تذكرت الان . انه أونوريه دى كوك . أظنــه قد مات ؟ .. أليس كذلك ! » .

فأجاب :

« نعم .. ذلك المسكين أونوريه . لقد كان من خير الصحاب . وكنت أحبه كثيرا . وا أسفاه » .

فقلت :

أظنه مات على اثر حادث ؟

فأجاب كونت بوميل :

بل مات عمدا .

فقلت مستعلما :

لا اظنك تعنى انه قتل نفسه ؟

فأجاب :

لا ، لا . هذا أمر مستبعد .

فرحت أسأله :

لعلك تريد أن تقول انه مات مقتولا ؟ ..

فقال :

انى أفضل الا أذكر شيئا الان عن هـذا الموضوع ، اذا كنت تسمح بذلك .

فقلت :

انى أستميحك عذرا يا كونت .

وما لبث أن تململ ثم قال :

لا. لا. لا. لقد كنت مجاملا لى ، الى جانب انى ارتحت الى مرآك منذ شاهدتك وملت الى صحبتك . فأنت رجل رقيق جذاب . ولم أعهد فى نفسى الجراة التى تملكتنى اليوم لولا ان شجعنى مظهرك . وأنا نادرا ما استمر فى اللعب طويلا .. وليس من عادتى ان احمل مبلغا كبيرا من المال . وعندما أترك مائدة الروليت ، فانى أنساها وانسى كل ما أحاط بها . ولست أدرى اليوم ما الذى حملنى على... على...

هل لك ان تتناول معنا طعام العشاء غدا ياسيدى ؟
فقلت :
بكل سرور .
وكنا قد فرغنا من زجاجة الشمبانيا وذهب كل منا في طريقه . وكنت أفكر وانا في طريقي الى فندقي فيما بدا لناظرى من متناقضات هذا الوجود . ان بعض الحمقى التافهين في بعض الفنون أو الصناعة يخلعون على أنفسهم ألقابا زائفة ويتصرفون بكل كبرياء وصلف ، في حين نرى رجلا مثل كونت بوميل الذى يعد سيد أهل حرفته في الدقة والمهارة ، والذى اشتهر بوصفه صانع ساعات الملك نيكولاس ، نراه منطويا على نفسه وقد غلبه الحياء وأربكه الخجل ، على الرغم من لقبه النبيل ، الى جانب ما بلغه من صيت وشهرة .
وكنت أود أن أعرف عنه الكثير . كما كنت أتلهف على رؤية زوجته ، وعلى اى شاكلة تكون . ذلك ان بوميل لابد وأن يكون قد جاوز السبعين من عمره . وتصورت ان تكون هي فوق الخمسين من عمرها ، مترهلة ذابلة ، وقد انطوت جوانحها على ملل وضيق بالحياة . وكنت مخطئا في حدسي وتصوري . لقد كانت بالفعل قد جاوزت الخمسين من عمرها ، وكانت بدينة ولكنها كانت ما تزال جذابة . وكان « بوميل » يدعوها « مينا » . وكان شعرها أحمر وعيونها زرقاء صافية . وكانت تبدو راضية هانئة بعد أن تحقق لها كل ما كانت تصبو اليه من سعادة ، أو كأنه لم يعد في الوجود أمر يعكر صفوها . وكانت من ذلك الطراز من الناس الذين يبدون سعداء رغم ما يلم بهم من

ضيق وخصاصة . وهى هنجارية الاصل ، وقد اشتغلت بالخياطة حتى أصبحت من شهيرات خياطات ذلك العصر .

وقبل أن تنقضى ساعة ، كنت قد أدركت انها كانت صديقة المسكين أونوريه دى كوك ، لا لانها احبته ، ولكن لانه لم يكن سعيدا . اما شأنها مع بوميل فجد مختلف . لقد لمست طيبة قلبه فأحبته وأسعدته بحبها.

ولكنها رغم كل ما أحاط بها من مظاهر الهناءة والسعادة ، فانها كانت تبدو كما لو كانت تطوى بين جوانحها سرا لا تود أن يند عنه لسانها أو تفضى به الى أحد .

واليك القصة الحقيقية لموت نيكولاس ، الملك الذى كانت هوايته جمع الساعات ، وهى القصة التى وقفت عليها أخيرا .

***

بعد أن انتهينا من العشاء ، راح بوميل يقص على قصته على النحو التالى :

« كنت قد تتلمذت على يد « تانكرد ديكر » حتى أدركت ووعيت بفضله الكثير من أسرار الصنعة . ولعلك رأيت صور « تانكرد » الذى يبدو فيها كما لو كان أحد كلاب الرعاة . وما ان استيقن من مهارتى

حتى استخدمنى كعامل معه بأجر يومى . حتى اذا ما بلغت العشرين من عمرى أصبحت مساعدا له . وقد اصطحبنى معه الى الملك نيكولاس عندما استدعاه ليقيم فى القصر ويصنع للملك ما يكلفه به من ساعات ، منذ أكثر من خمس وأربعين سنة ، عندما كنت أبلغ من

العمر الثانية والعشرين . وعندما وصلت مع « ديكر » كان علينا أن نقابل أولا سيدا يدعى « كوبالت » ، وهو أحد أقرباء الملكة ، وكان ذا نفوذ واسع فى القصر . ولما كان الملك طاعنا فى السن فقد أعتمد كل الاعتماد على « كوبالت » بعد أن حال بينه وبين مشاغل الملك ، ما كان يعانيه من آلام الروماتيزم والتهاب المفاصل . ولم يعد يعنى كثيرا بشئون المملكة . وكان أحب وقت لديه ، يقضيه فى انصراف كلى الى هوايته التى تتمثل فى جمع الساعات الكبيرة وغير العادية . والى جانب ذلك كانت هناك هوايات أخرى للملك ، انقطع عنها بعد ان بلغ الثالثة والسبعين من عمره .

كنت أقول اننا قابلنا « كوبالت » قبل أن نرى الملك . وقد راح يحدثنا عن السبب الذى دعانا الملك الى قصره من اجله . ولابد ان تكون قد سمعت شيئا عن « كوبالت » هذا ، أو لعلك لم تكن آنذاك قد ولدت بعد . انه على أى حال ، هو الذى فر مع مارلى مارتين زوجة الوزير ، وهذه حادثة من المحتمل كثيرا ان يكون والدك قد علم بها فى حينها . أما « كوبالت » فلعله الان فى عداد الاموات . فقد كان يبلغ الخمسين من عمره عندما رأيته أول مرة . وكان ذلك منذ اربعين عاما . وكان عندما رأيته مايزال وسيما ، ولكنه على جانب كبير من الشر وسوء الخلق رغم انه من النبلاء ومن علية القوم . بل لقد كان فى مكره وخبثه أخطر من الحيوان المفترس . ولم يكن شعر رأسه أو شاربه كثا ، كما لم تكن له أهداب. أما بياض عينيه فقد كان ناصعا براقا . ومنذ أول

نظرة اليه ، نفرت منه واحسست نحوه بكراهية لا ادرى مبعثها .

ابدى فى حديثه سروره برؤيتنا فى القصر ، كما أنهى الينا لهفة الملك الى استشارتنا فيما استدعانا اليه . ثم راح يقول :

« انه ... ولكن استمعا الان » .

لقد رفع اصبعه ، وأخرج ساعته بيده الاخرى الطليقة ، وكان يبتسم وهو يقول :

« الساعة الان الخامسة تماما » . وما أن انهى هذه الجملة ، حتى راح المكان يدوى بأصوات مختلفة ، كانت خليطا من الموسيقى وزقزقة الطيور ودق النواقيس وطرقات صادرة عن أجراس فضية وذهبية ، الى جانب عشرات وعشرات من دقات الساعات التى تعلن الوقت. من بين هذه الساعات رأينا ساعة المانية ينطلق منها اثنا عشر رسول من الحواريين ، كانوا يتمايلون وهم يدقون بمطارق من البرونز رأسا ذهبية لتمثال شيطان والى جانب هذه الساعة العجيبة رأينا ساعة آخرى رخيصة من الخشب ، كان يبرز منها عصفور نحيل راح يرسل صوتا يحاكى الفواق بعد دقات الساعة التى كان يعلنها وهى الخامسة .

عندما سكتت الاصوات ، راح « كوبالت » يقول :

« ان صاحب الجلالة يملك مجموعة تزيد عن سبعمائة ساعة . وهو ضعيف أمام هذه الساعات التى استهوته هوايتها ، مثله فى ذلك مثل الملك لويس السادس عشر. ولكن رجائى الا تذكروا شيئا أمام الملك يتعلق بلويس السادس عشر التعيس الحظ ، اذ ان ذكراه وذكرى

مصيره يورثان الكآبة . وسوف نتقابل كثيرا يامستر « ديكر » . وأنا على ثقة من ان بيننا كثيرا من الامور التى نشترك فيها ونتشابه ! » .

انحنى « ديكر » وفعلت أنا مثله . وراحت تتملكنى فكرة بعد أن سمعت ما سمعته ، مؤداها ان الملك مادام يهوى الساعات كل هذه الهواية ، فجدير به أن ينفرد بامتلاك ساعات تنطوى على أفانين من البدع وعجائب الصنعة وأسرارها . وأن تزدان هذه الساعات بتماثيل وشخوص مبتكرة لم يسبق أن راودت فكرتها عقل بشر من قبل .

وكانت هذه الفكرة التى تملكتنى هى اول خيط قادني الى الطريق الذى تصورت فى نهايته ما تكون عليه ساعة نيكولاس الثالث .

بدأت مع « ديكر » نعمل فى هذه الساعة التى تصورتها ، مدى أربع سنوات ونصف متصلة . وكانت الاجزاء ذات النفائس الفنية من صنع « ديكر » ، أما ما عداها من نواحى آلية وميكانيكية فقد كان الفضل فى صنعها يرجع الى عملى . وهكذا أصبحت صانع ساعات الملك نيكولاس .

أما مصمم الموديل ومبتكره وصانع الغطاء وصاحب الصور والرسوم والنقوش ، فقد كان « أونوريه دى كوك » ، ذلك الفنان العبقرى الموهوب . لقد كانت

عبقريته مستمدة من جذور بعيدة الغور للهولنديين الكبار من رجال الفن وما اشتهروا به من دقة وبراعة واتقان . وكان « دى كوك » من أولئك الفنانين الذين كان فى استطاعتهم نقل صورة طبق الاصل لرجل او

تفاحة أو قرد أو عنقود من العنب أو قطعة من نسيج الـكتان أو شعاع من أشعة الشمس . ان يده كانت آلة فوتوغرافية بارعة . ولم يكن ذلك مما يسعده سماعه. فقد كان يود أن يصنع شيئا من ابتكاره لا ان ينقـل شيئا يكلف بعمله . وكان مما يحز فى نفســه انه كان لا يقوى الا على رسم ونقل صور مما صنع الله . وكانت رغبته فى أن ينفرد بخلق شىء ينبض بالحياة ، تحتل كل حواسه وتفكيره ولـكنه كان يقف عاجزا دون ذلك . ولطالما اغتم وانطوى على نفسه من فرط الاسى ، بعد أن أيقن انه لايزيد عن كونه انسانا عاديا أو فوق ذلك بقليل على اكثر تقدير وأفضل تصوير .

ورغم شـــهرته ونجاحه وما جمعه من مال ، فان المسكين « أونوريه » كان حزين النفس ، الامر الذى حمله على ان يفرط فى تعاطى الخمر حتى أصبح مدمنا لايفيق وكنت من جانبى أكن له بالغ الحب والاعجاب . لقـد كان صانعا ماهرا أكثر منه فنانا . وكان فى استطـاعته أن يستخدم أى مادة فى عمله سواء أكانت من البرونز أو العاج أو الخشب أو المرمر أو الزجاج أو الذهب أو الحديد . أى شىء وكل شىء .

ولـكنه رغم هــذه القدرة ، فقد كان فى غم ، لانه لم يستطع أن يقنع نفســه ويحملها على التسليم بأن القدرة الالهية لم تجده صالحا صلاحية جديرة بأن يضع بين يديه الشرارة المقدسة التى هى أصــــــل الخلق والمخلوقات . ولهذا فان ما أشيع من ان « أونوريه دى كوك » قد انتحر ، له ما يبرره ، وان كنت من جانبى على خلاف هذا الذى أذيع ، ولدى بدورى ما حملنى على الاقتناع به .

ولكن الى أين وصلنا ؟ آه .. لقد تذكرت . كنت مع « ديكر » نتحدث الى « كوبالت » ذلك الرجل الرفيع المقام ، الناعم الملمس ، البالغ الخطر . وكان مما يثير العجب ، سماع كل هذه الساعات تدق فى آن واحد لتعلن الوقت . ثم لا تلبث أن تسكت كلها لتستأنف تلك الدقات الرتيبة التى تصدر عن الساعات . وكان القصر على سعته مليئا بالساعات . ولم يكن من المستطاع للزائر الغريب ، عندما يهبط الليل ، ان يخلد الى النوم ، بل كان يبقى فى يقظة مضنية ، انتظارا لما يصم آذانه من اصواتها كل ربع ساعة . وكانت هناك ساعة بها تمثال لصبية ترقص رقصة «الكان ـ كان» ثم تنضو عنها ثيابها الخارجية حتى تكشف عن ملابسها الداخلية . وهى خلال ذلك تنقر على طبل فى يدها اليمنى . وكانت هناك ساعة أخرى فرنسية حديثة فى بدعتها . كان يزينها اثنا عشر تمثال لموسيقيين ، ما ان تعلن الساعة الثانية عشرة ، حتى يتملكهم مايشبه الجنون والهذيان . وبعدذلك يمضون فى تحريك أطرافهم فى جميع الاتجاهات ، بينما صوت موسيقى رفيعة يخرج من صندوق يختفى وراءهم ، يحمل أنغاما راقصة تفيض بالحياة . كما كانت هناك ساعة ألمانية تنطق بألمانيتها . كانت تعلوها مزرعة بها فلاح وزوجته وابنه وابنته وخنزير . وبانتظام دقيق لايتطرق اليه خلل على طول اليوم ولاربع وعشرين مرة ، يتكرر منظر يمثل الفلاح وهو يضرب زوجته ، والزوجة وهى تصفع ابنها ، والابن وهو يرفس أخته ، والابنة وهى تشد ذيل الخنزير ، كل ذلك يسير وهم

يصرخون معا . انها ســـــاعة تسلب الالب !.. ولقد أيقنت بعــد أن رأيت ما رأيت ، انني و « ديكر » ممن لايمكن الاستغنــاء عنهما مطلقــا . ذلك ان هـــــذه الســاعات ذات اللعب والتماثيــل ، سريعة التلف من فرط حساسيتها ودقة صنعها ، بحيث تتأثر من أوهن شيء يعتريها ، حتى أصبحت العنــاية بها أو علاجهــا من قبيل علاج جرحى الحرب ، ابقاء على أرواحهم .

يا له من عمل متصــل دائم ! ان صــاحب الجلالة الملك يستخدم تسعة من المشهود لهم بالمهارة للابقــاء على انضباط ســاعاته ودقة توقيتها ، ولا عمــل لهم سوى ذلك .

وكنا نحن « ديكر » وأنا قد التحقنا بالعمل لدى الملك لاصلاح ما يتلف وابتكار ما هو جــديد ، بمرتب نرك « ديكر » مشدوها ، وهو الذى اعتاد غرائب وشــذوذ الاثرياء ، الذين لايقيمون للمال وزنا . انني آسف اذا ما أزعجتك بهذا الحديث عن الساعات ولا شيء ســوى الســاعات . ولــكنى كما ترى ، لا شيء فى حيــاتى سوى الســـاعات ولا اعرف شيئا عداها . وأنا الى جانب ذلك ، ولــكى أصــل الى الجانب الهام مما أود أن أســوقه اليك ، لا استطيع ان اتجنب ذكر الساعات ذلك ان الملك نيكولاس الثالث بعد أن بلغ من العمــر ما بلغ ، لم يعد يشغل فكره وباله ســوى ســاعاته .

ولعلك تتساءل : كيف ان ملــكا فى مثــل هــذه السن العالية والمرض المضنى ، يحتمــل أن يحيــا دائما بين ما يذكره بمرور الزمن واقتراب الاجل ، الا ان حب الملك للساعات كان أقوى من خوفه من الموت .

ذهبنا مسرعين للمثول بين يدى الملك . ولك ان تذهب فى تصورك الى حد اعتبارنا أطباء استدعوا على عجل لاسعاف مريض مشرف على الموت ولانقاذه مهما تكلف الامر . يا الهى ! .. ان صاحب الجلالة كان طاعنا فى السن الى حد كبير . لقد كان يجلس كما لو كان جثة متصلبة فوق كرسى كبير من القطيفة ، وقد التف من رقبته الى ركبتيه بعباءة ثقيلة ، ورغم ذلك ، ورغم ان الشباك كان مغلقا ، ولهب النار فى الغرفة متوهج ، فانه كان يبدو ازرق اللون من فرط ما يحسه من البرد . لقد كان ، ان صح القول ، متجمدا ، وقد خلت عروقه من الدم . بل ان عينيه كان يحاول ان يطرف بهما ليبعث فيهما بعض البلل من تحريكهما . وكان الملك يعانى من شلل قيل انه نتيجة ما تقلب فيه من نزق وطيش فى صدر شبابه . والى جانب ذلك كان يعانى من التهاب الشرايين وهو ماجعل حركته صعبة لايستطيع معها حراكا الا بكل جهد وصعوبة ومشقة . ولن أنسى منظره على هذه الصورة ، وهو امر ترك فى نفسى أسوأ الأثر . لقد كنت أسير فكرة صبيانية ، مفادها ان الملك فى حياته يجب أن يبدو ملكا فى كل حركاته وسكناته ، ولكنى لا ارى أمامى سوى جثة ملك ، بدا عجوزا كالجبال ، مجهدا من فرط ما أفرط ، حتى لم يعد يقوى على وقف ما ينتابه من رعشة تسرى فى كل جسده . ولم يكن فى استطاعته ان ينقطع عن التأوه والتألم ، أو فى استطاعته أن يمنع رأسه من التحرك ذات اليمين وذات الشمال كما لو كان سلحفاة .

أما ذقنه فكانت فخمة مهيبة . وكان شعرها يبدو كخيوط من حرير . وكانت تملأ كل وجهه وجانبا من صـــدره . وما ان وقع نظره على « ديكر » وعلى حتى انتعشت روحه وسرت فيها نسائم الحياة .

لقد ترك الملك من فوره الرسميات جانبا ، وأقبـل على موضوع العمــل مباشرة . ما انكر ما كان عليــه صــوته ! .. كان صـــوته متقطعــا فى مثــل حشرجة المشرف على الموت ، ومختلطا بتأوهات لا تنقطع. وكان فى الحين بعد الحين ، يحاول من قبيل التبسط والمجاملة أن يتنـــاسى آلامه المبرحة بدافع من لهفته على الحديث فيما أراد . راح يقول لنا بين التأوهات والصرخات :

انــكم تنزلون بالقصر على الرحب والسعة . ولــكم ان تطلبوا ما تشـــاءون وهو مجاب بما فى ذلك مايلزمكم من مال . وسوف تقيمون فى القصر ، وتزاولون أعمالكم فى المــكان الذى خصصته للعمل . وراح ينعى ماأصاب ســاعاته البالغ عددها ســبعمائة ســاعة من تلف كان نتيجة الاهمال . وطلب الينــا أن نبــدأ العمــل فورا باصــلاح ســاعة ســويسرية فريدة فى نوعها .

وقــد كان المتسبب فى توقفها رجــل يدعى « فرينز هارلين » ، عندما ترك أصــابعه الغبية تعبث بمحتوياتها حتى لحقها التلف جهلا منه بمسالك الاصلاح الصحيح. وكان علينـــا ان نصــلح من شـــأنها فى الحال ، خــلال مراقبتـــه لمــا كنا نقوم به من اصلاح . وكانت مشاهدته ومراقبتــه لمن كان يستقدمهم لاصلاح ســاعاته أثنــاء قيــامهم بعملهم ، هى المتعة الوحيــدة التى بقيت لهــذا الملك المسكين . وقد جلس ذات مرة ثمانى ساعات وهو

يراقب عملى فى المصنع الذى استحدثه فى القصر . وكان يتنــاول طعــامه خلال هــذه الســاعات ، الذى لم يكن يزيد عن اللبن ، يتناوله من آنية خزفية ، وهو جالس فى كرسيه المخملى .

لقــد ســاروا بنــا الى ذلك المصــنع الملــكى الذى كان يفوق حد الخيال فيما جمع . وكانت تقوم فوق منصــة فيه ، ســاعة ، كان بنــدولها البرونزى فى حجم قدمين ، وقد تفرق فوق مينائها اثنا عشر تمثالا ، يبلغ حجم كل تمثال منها أربع بوصات طولا . ومن بينهــا كان يظهر ملك تزين بالجواهر وعلى رأســـه تاج من ذهب ، وكاردينال يلتف فى عباءة مخملية حمراء ، وفارس يمسك بسيف من فضــة ، وتمثال فى هيئة تاجر يزدان بأحجار من اللازورد ، وجراح يمسك بمشرط فى يده ، وفى اليــد الاخرى قلب من اليــاقوت ، وراهبــة من مزيج من الفضــة والعاج ، وطفــل رضــيع صيغ من العاج والذهب البنــدقى ، وغانيــة ترفل فى الجواهر والحلى ، وفلاح من عاج قديم وبرونز ، ومتسول من العظم المرصع بلآلىء صغيرة . وكانت الفكرة التى ابتكرها مصمم هــذه الســاعة ، تتبلور فى انها عندما تدق معانة الثانية عشرة ، فان بندولها يمثل آلة الحصاد التى تقوم بحصد هــذه التماثيل واحدا بعــد الاخر حتى تنتهى بالملك عند الدقة الثانية عشرة من دقات منتصف الليل . انها قطعة رائعة من الفن والصنعة المــاهرة الحاذقة ، كانت تحملنا قسرا على ان نمر بها باحتــرام وتبجيــل بادين .

كان الملك عنــــدما جاء الينا ، يستند الى ذراعى

رجلين ، كان أحدهما طبيبا مبسنا ، والاخر شابا قوى البنية بوجه غير مألوف فى غرابته . وكانا يساعدانه فى السير حتى وضعاه فوق كرسى من المخمل الاحمر . وعندما بدأنا «ديكر» وأنا ، ننحنى للملك ، راح يقول :

« لا . . لا . . لا حاجة لى بذلك . استمرا فى عملكما » .

ثم أشار بيده اشارة ملكية للتحية والمجاملة ، لم يلبث بعدها ان أطلق السبيل لسيل من الانات والتأوهات والشتائم لمن كان السبب فى اتلاف هذه الساعة . وانصرفنا الى العمل فى اصلاح ما لحق بالساعة من تلف . ان « فريتز » الذى استدعوه لاصلاحها ، بدا كما لو كان مخبولا . وسوف لا ادخل معك فى تفاصيل فنية حتى لا تفقد صبرك . لقد عمى بصره عن أن يرى سلكا رفيعا يقل فى طوله عن نصف البوصة ، التف حول تمثال الملاك ، الامر الذى أوقف حركة باقى التماثيل . وكان هذا السلك بمثابة الاساس الذى ترتكز عليه الحركة الآلية للساعة وما بها من تماثيل . وبعد ان بذلنا من جهد وعرق وتعب ــ ولكم نال التعب من الصلب نفسه ــ تمكنا من ازالة السلك الذى كان يتسبب فى وقف حركة الساعة . ولم يلبث البندول الذى كان يمثل آلة الحصاد أن تحرك وراح يحصد التماثيل ، وأخذت الساعة ترسل دقاتها . وما ان سمع الملك دقات الساعة ورأى تماثيلها وهى تقوم بدورها ، حتى أرسل صرخة فرح مصحوبة بتأوهات الألم والكثير من الفاظ الحمد والشكر والامتنان . وقد أظهرنا للملك ان

الاصلاح لم يتطلب منا الا اليسير من الجهـد ، واننـا أزلنا السلك التالف واستبدلناه بسلك جديد ، قمين بأن يدير الساعة مئات من السنين .

غدونا « ديكر » وأنا بعد هـذه الحادثة ، من ذوى القدم الراسخ فى القصر ، فى حكم الملك نيكولاس الثالث. لم يكن من طبع أحد منا الاضرار بأحد ، أو استغلال مكانتنا للنيـل من أحد . ولـكنى كنت على يقين من ان أحدنا أو كلينا اذا ما صادفنا ما يوقعنا فى المسئولية والحساب ، فانه لن ينالنا عن ذلك جزاء ولا عقاب . هـذه المكانة والجاه والامتيـاز ، قد أطاحت مجتمعة بحياة « ديكر » المسكين . فلقد حدث على سبيل المثال، ان كبير أمناء القصر ، وهو رجل متكبر ، لا يملك أمر نفسه اذا ما انفعل ، دخل فى حوار مع « ديكر » قال فى ختامه ما مفاده ان عليه ان يعرف قدر نفسـه ولا يجاوز هـذا الحد . ولقد تأثر « ديكر » من هذا القول وهـدد بترك القصر . وكانت النتيجة ان طـرد كبير الامناء من القصر بخزيان مشين . غير ان كبير الامنـاء المطرود ، الذى كان يدعى « تانكريد » ، اضمر كرها عميقا للملك ، وأخذ يمد بالعون والتأييد سرا ، حزب الاحرار الديموقراطى . ولعلك قرأت شيئا عن الوضع السياسى فى عهـد الملك نيكولاس وخاصـة ما قام من تذمر خلال حكمه راح يعم البلاد . وكان الملك نيكولاس كما كان العهـد بأبائه من قبله ، ملـكا مطلقا . وكان هو وحده ، القانون .

وعلى اثر مقتل أبيه الملك « فيندكس الثانى » على يد امرأة ألقت على عربته قنبلة تزن سـبعة أرطال ،

أعتلى « نيكولاس » ألعرش . وكان يعاونه فى ادارة شئون المملكة وزير حكيم ومجرب ، حمله على ان يقوم بادخال اصلاحات فى البلاد تناولت جعل التعليم والخدمات الصحية والعلاج مجانية للشعب . وكان يوالى بتشجيعه تقدم الفنون الجميلة وتنمية الصناعات الثقيلة والتوسع فى ميدان المبادلات والتجارة الخارجية

كل هذه الاصلاحات وكثير غيرها ، قد تميز بها عهد الملك « نيكولاس » غير انى كنت الاحظ انالرجل العادى رغم كل ما فى هذه الاصلاحات من موجبات للاطمئنان ، كان يرزح تحت عبء قيود عديدة تمسك عليه حريته ، الامر الذى اشاع فى نفسى الرعب ، وانا السويسرى جنسا ومولدا .

من ذلك أن الملك لم يكن يسمح بصحافة حرة تنشر ما ترى نشره ، أو تنقد ما يعن لها نقده . وكان الفساد قد تطرق الى المناصب الكبرى فى الدولة ، بعد أن أصبح الملك طاعنا فى السن ، وحال ضعفه ومرضه دون أن يبذل أى عناية أو رعاية الا للسبعمائة ساعة من ساعاته العجيبة . ونتيجة لذلك ، أخذ التذمر المكتوم ينمو ويطرد مثلما تأخذ البذرة سبيلها من تحت تربة الأرض ، الى سطحها ، وسرعان ما تغدو قوية الجذع ملتفة الاغصان .

فلقد كان فى البرتغال أحزاب مناوئة للحكومة ، يرعاها الفوضويون الاحرار والارهابيون من حزب « بروتس » ، والاشتراكيون الديموقراطيون ، والفوضويون المستقلون ، والجمهوريون والعمال الملكيون ، وعشرات غيرها من الأحزاب . الا ان حزب

الاحرار الديموقراطيين ، كان من بين كل هـذه الاحزاب ، اكثرها نفرا واشدها بأسا فى معارضتها للملك ، بزعامة محام قديم يدعى « مارتن » . هذا هو الحزب الذى كان يتعين أن يقام له وزن ويحسب له حساب . ذلك ان اتجاهاته كانت بغير نزاع دستورية. كما ان سياسته لم تكن تستهدف عزل الملك ، ولكن كان هدفها تجريده من السلطة ، ومعنى هـذا ان يبقى الملك مجرد صورة بحيث يملك ولا يحكم . وكان من الطبيعى ان يكره الملكيون ، هؤلاء الاحرار الديموقراطيين، اذ ان فى اضعاف سلطة الملك ، اضعافا لسلطانهم ونفوذهم . وكان خوف الملكيين من هـذا الحزب ومن رئيسه «مارتن» يزداد كلما ازداد «مارتن» قوة وازداد حزبه سلطة . وكان هذا الحزب متهما بأنه هو المسئول عن تمويل كل الخطط والدعايات المناوئة لحكم « نيكولاس » بواسطة صحافة وكتب وصور تطبع فى الخارج وتتناول ما لا تستطيع الصحافة المحلية تناوله ، وتهيىء بذلك الجو والمناخ اللازمين للقيام بالشغب وأعمال الارهاب . الا ان الاتهام كان يعوزه الدليل والاثبات اللذين لم يكن من المستطاع التوصل اليهما بفضل تحرز « مارتن » وحذره ومهارته .

وكان من المعتقد ان شخصية الملك « نيكولاس » وحدها هى التى عاقت الاطاحة بنظام الحكم . وكان الملك المسكين يعانى من شيخوخته ومن شلله ومن التهاب شرايينه حتى انه كان أقرب الى الموت منه الى الحياة. وكان يبدو ان نهاية حياته ستكون بداية ثورة تعم البلاد كلها ، وهو أمر كان احتماله متوقعا . ولم

يكن بين كل الاحزاب من ينكر أن الملك كان من خير من جلس على عرش أسلافه ومن اكثرهم عدلا . فقد كان انسانا ووالدا حانيا على شعبه ورعيته . وكم كان يسعده ان يفعل ما من شأنه ان يسعد كل فرد من رعيته لو استطاع الى ذلك سبيلا . من اجل كل هذه الصفات ، اكتسب الملك محبة شعبه واحترامه وتبجيله .

ولم يكن للملك ذرية . وكان قد رزق بابن عاش سقيما عليلا الى ان أسلم الروح .

وقد اقتضى وقوفى على هذه المعلومات شهورا عدة ، حتى اذا ما وعيتها وأدركتها واستخلصت النتائج من المقدمات ، بدأت أوقن بأن « ديكر » وأنا لم نكن نقف على ارض صلبة وبأقدام راسخة كما توهمنا .

فى ذلك الحين كنت أعمل فى ساعة الملك «نيكولاس» الكبرى . وكان الملك العجوز يأتى كل يوم ليشاهد ما نقوم به من عمل . وقد اعترضنى خاطر عجيب . ذلك اننى رغم ميلى الى أن تكون الساعة ساعة لا اكثر ولا أقل ، لا لعبة ميكانيكية ساذجة ، الا اننى أحسست فى نفسى ضعفا أمام هذه القطع الالية البارعة. وكان المصنع الذى نعمل به فى القصر يروق لنا كثيرا . فقد كان يضم كل طريف ومستحدث مما لا يخطر على بال . وكان الملك ممن يميلون الى حجب خصوصياتهم عن كل عين الا بعض المقربين اليه . وكان يصمم على أن يرى بنفسه كل جزء من الاجزاء الداخلية للساعة التى كنا نقوم بصنعها له ، أنا و « ديكر » وعندما انضم الينا « أونوريه دى كوك » ، ليقوم بصنع التماثيل

وتثبيتها فى أماكنها من الساعة ، كان لزاما وأمرا مقضيا ان يقف على الطريقة التي تتحرك بموجبها هـــــذه التماثيل . وكان الرجل فى مبـــدأ الامر غير ذى شـــأن كبير فى العمـــل بصـــورة كاملة . وكان دوره لايتعدى كما سلفت الاشـــارة صناعة التماثيل . ومن فرط تأففه وانقبـــاض نفســه ، لم تكن يداه تستقران فى وضع من قلق لا يملك دفعه . وكان يعبث بأى شيء تقع يداه عليه

وذات يوم عنـــدما اقتضى العمـــــل ضرورة وجوده حتى نفرغ من الجزئيات المتعلقة بمفصل الركبة للتمثال الاوســـط فى ســـاعة نيكولاس الـــكبرى ، راحت يداه تعجن وتكور وتدير قطعة كبيرة من الصلصــــــال كانت موضوعة على رف فى المصنع . وبعد أن مرت ساعة على ما كانت يداه تعبث به سأله الملك :

« ماذا تصنع ؟ »

فأجابه دى كوك :

« لا شيء يامولاى »

فقال له الملك :

« أرنى ما صنعته ؟ »

وقد هالنـــــا ان نرى كيف أن « أونوريه دى كـــوك » بيـــديه الخلاقتين القلقتين العابثتين بتلك الـــكتلة من عجينة الصلصال ، قد توصـــل الى صنع نموذج طبق الاصل « لديكر » ، حتى ان الملك صاح بفرحة صبيانية:

« أصنع لى نموذجا مماثلا » .

انحنى المسكين « دى كوك » وقال :

« بكل سرور يا صاحب الجلالة . ولـــكن ليس من الصلصــــال ، لان ما يصنع منه لا يبقى متماسكا لفترة

طويلة من الزمن . فان شئت جلالتكم صنعت لكم تمثالا من ... لنقل من الشمع ، وهى محاولة على سبيل التسلية » .

ورغم انه لم يكن قد انقضى من النهار الا أقله ، فان « دى كوك » كان قد شرب زجاجة من البراندى ، حتى لم يكن ليعى ما يفعل او يقول الا بكل جهد وعناء .

ومضى يقول للملك :

« وسوف تسر جلالتك من التمثال كل السرور . وسوف يكون هذا التمثال ثانى ما أصنع من تماثيل الشمع . أما التمثال الأول فقد كلفتنى بصنعه سيدة رغبت فى أن أصنع لها تمثالا من الشمع مطابقا لها وبحجمها الطبيعى » .

فسأله الملك :

« ولكن لماذا ؟ »

أجاب دى كوك :

« ذلك لان للسيدة المذكورة زوجا كثير الشك والارتياب فى تصرفاتها بسبب فارق السن بينهما ، ومن أجل جمالها الفاتن وصباها الآسر . وكانت قد اعتادت أن تتسلل من غرفتها عند منتصف الليل لزيارة من تهوى . وكان من عادة زوجها ان ينظر خلسة من ثقب الباب فى الحين بعد الحين خلال الليل ليطمئن باله على وجودها بغرفتها . وقمت كطلبها بصنع تمثال لها بحجمها الطبيعى ، على صورة مانيكان الخياطات . وجعلت مفاصله متحركة حرصا منى على مطابقة التمثال للأصل عند الحركة فى أى وضع من الاوضاع . واستطاعت السيدة بذلك أن تضلل زوجها ثلاث سنوات .

سأله الملك :

« وماذا حدث بعدها ؟ »

أجاب دي كوك :

« حدث يا صاحب الجلالة ان زوجها هم ذات ليلة على عادته بالذهاب الى غرفتها ليتحقق من وجود زوجته بها ، وما أن رأى جسدها فى وضع مثير بالغ الاغراء ، حتى لم يستطع ان يكبح جماح عاطفته المشبوبة التى أمدته بالجرأة على فتح باب الغرفة والتسلل الى داخلها ليقبل زوجته ويهدهد من تلك العاطفة المشبوبة، ولكنه لم يلبث حتى خرج من الغرفة وهو يولول ويبكي زوجته المتوفاة والمسجى جسدها فوق سريرها . ويشاء القدر الساخر أن تدخل الزوجة القصر فى تلك اللحظة ، ويراها زوجها وهى تدلف الى داخله من أحد الممرات » .

سأله الملك :

« وهل قتلها الزوج ؟ »

فأجاب دى كوك :

« لا يامولاى . انه لم يقتلها ، ولكنه حطم التمثال»

كانت هذه هى المناسبة الفريدة التى رأيت الملك يضحك فيها . ويبدو انه بذل مجهودا وهو يضحك ، فراح يتأوه ويلعن . ولكن قصة « دى كوك » كانت بلسما مسح على آلامه وأمده بحالة عالية من البهجة والمرح . فلقد كان الملك فى صدر شبابه من اكثر الناس حبا فى المجون والدعابة ، وخلق مجالات الهزل والمرح . وكان يميل الى اتيان ما يبعث على الضحك من الاخرين بوضع شراك وخدع يتعثر فيها الذى يقع عليه

الاختيـار للوقوع فى هـذه الالاعيب التى تبعث على الضحك والانشراح .

قال الملك موجها حديثه لـ « دى كوك » :

« ليكن كما تشاء ، واصنع لى تمثالا من الشمع بحجمى الطبيعى . ولكن عليك ان تكتم أمر ذلك كل الكتمان . هل سمعت ما أقول ؟.. وعليك ان تبدأ منذ الان فى العمل دون ان تترك شعرة أو تجعيدة أو أى شىء مهما دق . وبذلك نستطيع ان نخلق جوا من اللهو والمرح ، عندما نخادع سكان القصر البلهاء بوجودى فى مكانين فى آن واحد ، الامر الذى يبلبل أفكارهم ، ويبعث فيهم الحيرة والارتباك » .

ولم يتوان الملك عند نهاية الحديث عن اهداء « دى كوك » ، علبة جميلة للسيجار من الذهب المطعم بالجواهر . ورغم ذلك فقد بدا « دى كوك » مكتئبا ومهتاجا . وراح يصيح وهو يحدث نفسه :

« ما الذى حملنى على أن أروى للملك ما رويت ؟.. لماذا ؟ .. أبعد كل هذه السنين الطوال ينتهى بى المطاف الى أن أقوم بصنع دمى من الشمع للعجائز من البشر فى طفولتهم الثانية ؟ » .

قلت له :

« وما الفارق بين تمثال من البرونز وآخر من الشمع؟ وطالما أن هذا السيد العجوز يسعده ذلك فاصنعه له . ولعلك ادركت مدى كرمه عندما يكون راضيا مرحا . هذا الى جانب انك ضمنت بذلك استمرارك فى عملك بهذا المصنع مدة سبعة أشهر . وسواء أصنعت التمثال من الشمع أم من البرونز، فأنت على الحالين

مكتئب وحزين . وبدلا من ان تصنع تمثالا من الصلصال وانت تزجى الوقت بالعبث ، فقد تهيأت لك الفرصة لان تصنع تمثالا من الشمع ، وما وراء ذلك من جدوى ونفع اكيدين » .

روح هـذا الحديث عن « دى كوك » ، وهدأت نفسه وبدأ فى العمل باعداد كتلة ضخمة من الصلصال تكفى لصنع الجسم ، ووضعها فوق قائم وراح يسوى فى البداية رأس الملك . وكانت الخطوط التى التزمها بمهارته الفنية هى كالاتى فيما اذكر :

استهل عمله بصنع الرأس بحجمها الطبيعى بدقة متناهية يمكن ان توصف بأنها ميكروسكوبية ، وذلك من عجينة الصلصال التى يصنع منها المثالون تماثيلهم . وعندما جف هـذا الجزء ، وضعه فى قالب من الجبس بعناية فائقة ، وراح يصب عليه نوعا خاصا من الشمع المذاب . ثم أخذ يزيل القالب قطعة قطعة كأنما كان يحل لغزا أو أحجية ، حتى ظهر الرأس فى صورة بشعة مرعبة ، خفت أن تطالعنى كالكابوس فى نومى .

وفى هـذه المرحلة ، لم يكن هناك أى وجه شبه بين هـذه الرأس وبين رأس الملك . لان « دى كوك » لم يكن قد ألصق بها الشعر واللحية بعد .

ولعل وضع الشعر فى رأس الملك ، كان هو المرحلة الشاقة المملة فى هـذا العمل . فقد جرت العادة عند صنع التماثيل الشمعية أن يقوم المثال بوضع كل شعرة على حدة . ولو انى كنت موضع « دى كوك » ، لما همنى أن أضع لحية كاملة حيثما اتفق شبيهة بلحية الملك « نيكولاس » . الا ان « دى كوك » عندما يندمج فى

عمله ، فانه يغدو متحمسا لاصغر جزئية فيه مهما بدا من هوانها . ومن أجل ذلك كان « دى كوك » العزيز المسكين هو ذلك الفنان العظيم . ورغم ما ساوره من غضب وتردد فى البداية ، الا انه تحول الى فنان استغرقه عمله وانهمك فى انجاز راس الملك . وكان قد قصد حانوتا مما يبيع لوازم هذا الفن ، واشترى منه كمية ضخمة من الشعر الابيض الجميل . « وفى البلقان توجد بعض الفلاحات المعوزات ، ممن يملكن شعورا جميلة هى بمثابة التيجان لرءوسهن ، يذهبن لبيعها مقابل دراهم معدودات ترد عنهن صولة الجوع والحاجة» وقد راعنا ان نرى الملك العجوز أمامنا بحجمه ، فرحنا نختلس النظر الى رأسه وملامحه وذقنه وكل مميزاته ونحن مشدوهين .

خطر لى خاطر وأنا أمعن النظر فى تمثال الملك وما حواه من دقة وبراعة وحذق ، فقلت لدى كوك :

« طالما ان السيد العجوز قد اهتم بهذه « الدمية » على حد وصفك لها ، فماذا لو اننا مزجنا فنينا معا لنخرج منه شيئا رائعا ؟ فأنت عندما تتم تصميم واستكمال كل تمثالك ، أتعهد أنا بصنع الباقى » .

فسألنى « دى كوك » :

« ماذا تعنى ؟ »

قلت له :

« سوف لا تعترضنى أى صعوبة فى ابتكار جهاز آلى كأجهزة الساعات التى أقوم بصنعها ، بحيث يمكن بواسطته أن أجعل الملك يطرف بعينيه ويحرك راسه ذات اليمين وذات الشمال ، ويرتعش كما هو معهود

فيه ، ويهز يديه المتصلبتين المرتعشتين . وهـذا أمر ايسر على من صناعة الساعة ذات الديك الصائح » .

ابتهج « دى كوك » بالفكرة ، ورحنا ندبر الامر سرا فيما بيننا وحدنا ، ليتسنى لنا أن نباغت الملك ونفاجئه بهذا اللهو البرىء المبرأ من كل أذى أو ضرر . وما دام هو الذى أوحى به ، فليكن له ما أراد . ولم يكن هنالك من أحد يدرى شيئا عما نصنع . وكان « ذيكر » قد ساءت حالته واشـتد عليه مرض قلبـه الذى لم يمهله حتى قضي نحبه . وهكذا مضيت أنا « ودى كوك » فى أوقات فراغنا ننصرف الى هـذه الدمية . والواقع ان العمل فيها قد استهوانا واستغرقنـا واسـتحوذ على البابنا .

ولم يكن أمرا ذا بال ، اعداد الالة التى تحرك العينين والرأس وتبعث الرعشة فى اليدين . فذلك عمـل من صميم اختصاص صانع اللعب . ولـكننى خلقت ميالا للأعمال الصعبة التى تتطلب حذقا ، وتحكما فى الاجزاء المعقدة التى يتكون منهـا عملى الفنى . وذلك ما جعلنى أفـكر فى أن الامر يكون أبعث على التسلية ، لو أمكننا أن نسيطر على مفاصـل التمثال ، بحيث نحمله على أن يقوم ويقعـد ، ويخطو خطوات الى الامام ، بطيئـة ومهتزة فى مثل خطوات من تصـلبت أطرافهم من أثر الروماتيزم . وكان هـذا العمـل بالنسـبة لى يسيرا وهينا .

ذلك أن البـاعة الجائلين فى الطرقات ، يبيعون لعبـا من صفيح ، فى استطاعتها ان تقوم بنفس هذه الحركات فى يسر وهوادة ، بل وتلـف فى الهواء دورة كاملة كما

يصنع البهلوان . غير انى فى النهـاية وجدت ان الامر ليس فيه من الصعوبة والتعقيـد ما يستهوينى وأميـل اليه . فلما فرغنا من ان نجعل التمثال يرتعش ويطرف بعينيه ويجلس ويقف ويسير ، رغبت فى أن أجعله يتكلم.

وكان الجرامافون كما تعلم قد اخترع فى ذلك الحين، وان كان بدائيـا فى أوائل اخراجه . ولم يكن صـوته أمينا فى نقله للأصـوات الطبيعية التى تحاكيها . وذلك هو ما كان عليه صـــوت الملك العجوز ، اذ لم يكن بالمثل طبيعيا ، بل كان فى الواقع أشـــبه باسطوانة مشروخة . وهو على هـذه الصـورة يكون من أسهل الاصـوات التى يمكن تقليـدها . ذلك ان تحاول ذلك بنفسك . فما عليك اذا شئـت ، الا أن تدع كثيرا من اللعاب يتجمع فى آخر قصبتك الهوائية ، ثم تتأوه وانت على هـذه الحالة ، تحصل على صوت مماثل لصـوت الملك ، فى يسر وسهولة . وكان علينـا أن نثبت الآلة المحركة للتمثال فى ظهره فيما بين أسفل الـكتف وأعلا الفخذ ، ونثبت معها الازرار التى يقوم كل منهـا بعمله المنوط به . فاذا ما ضغطت على زر منها وقف التمثال، واذا ماضغطت على آخر فانه يخطو اثنتى عشرة خطوة الى الامام ثم يلف أوتوماتيكيا على عقبيه . واذا ما أردت التمثال أن يقفل راجعا ، فما عليك الا أن تعود للضغط على زر التحرك .

وهناك زر يجعل التمثال يجلس عندما تضغط عليه. ولمـا كانت مفاصـل الفخذ والارجل تكون زاوية حادة بدرجة ٩٠ فان الجرامافون يبدأ عمله بالـكلام بطريقة آلية فور جلوس التمثال ، وهنا يأخذ فى التأوه وارسال

الشتائم واللعنات كما يفعل الملك . وقد حرصت على ان أجعل التمثال لا ينقطع عن الاهتزاز والرعشة ، بينما أثبت داخل الراس منفاخا يمتص الهواء ثم يخرجه ، حتى يستمر الشارب الذى يغطى الفم فى حركة دائبة، ويستمر التنفس الذى يشبه الخوار مسموعا .

لقد بدا التمثال كما لو كان كائنا حيا ، وخصوصا بعد ان ألبسناه ملابس استجلبناها من خزانة ملابس الملك . وكنت باعتبارى صانع ساعات الملك ، صاحب حظوة وجاه وخطر . وكل من كان فى القصر قد أحاط علما بما حدث لكبير الامناء « تانكريد » ، ولذلك فقد حرص كل من حولى على أن يقدموا لى كل فروض الرعاية والطاعة والاحترام . بل لقد كان فى استطاعتى أن أقوم بمغامرات مع أميرات القصر لو كنت أميل الى ذلك . لذلك لم أجد أدنى صعوبة فى أن أحصل من المشرف على خزانة ملابس الملك ، على بزة كاملة من الملابس الملكية ، بما فى ذلك خف الرجلين المصنوع من الفراء ، وعباءة فضفاضة وغطاء للراس من المخمل كان الملك حريصا على ارتدائه بصورة دائمة. وعندما ألبسنا التمثال هذه الملابس ، قمنا باجلاسه على كرسى كبير من المخمل الاحمر ، وأسدلنا عليه ملاءة حجبته كله ، ثم انتظرنا نترقب . واخيرا حلت اللحظة الحاسمة .

وكنت أنا ودى كوك فى حالة من القلق والانفعال النفسى أشبه ما تكون بما يعترى الاطفال من نفاد صبر وقلة حيلة وهم يعدون مفاجأة لوالديهم وينتظرون لحظة اعلانها فى وقت معلوم .

جاء الملك وهو يستند الى ذراعى الدكتور والوصيفة،

وقاما باجلاسه على كرسيه المعتاد ، وراح هو على عادته يتأوه ويصب اللعنات .

نظر الينا الملك وهو يسأل :

« ما الذى أعددتماه ؟ » .

قلت :

« مفاجأة صغيرة لصاحب الجلالة » . وعند ذلك ضغطت على زرين فى نفس اللحظة التى أزحت فيها الملاءة بعيدا ، واذا بالتمثال يقف على قدميه ، ثم يخطو اثنتى عشرة خطوة ، حتى أصبح وجها لوجه أمام الملك ، وهو أمر توفرت على ضبطه بحساب دقيق ، وما لبث التمثال أن استدار على عقبيه ، وكنت قد ضغطت على زر من شأنه أن يجعله يسير فى طريق العودة الى الكرسى ، حتى اذا ما بلغه ، استدار على عقبيه مرة أخرى ، وبالضغط على زر آخر جعلته يجلس على الكرسى ، فى الوقت الذى أخذ الجرامافون يرسل تأوهاته ويمضى فى صب اللعنات فى وجه الملك .

كنت قد لاحظت ان ضحكة الملك تقدمت بهجته وسبقت انشراحه . الا ان ما رأيته بعدها أفزعني. فقد احتقن وجه الملك وأصبح أزرق اللون ، وكأنما كانت عيناه تحاولان أن تخرجا من محجريهما ، ثم ما لبث أن أرسل صيحة مخيفة ما أزال حتى اليوم أسمعها فى أحلامى .

صحت بدورى :

« مولاى صاحب الجلالة . عفوك ومغفرتك ! » .

ولكنه لم يسمع صيحتى . لقد مال برأسه الى الوراء وراح يتضاءل وينكمش كما لو كان كيسا من

الدقيق أخذ يفرغ ما بداخله بعد أن مزقته سكين .
أما الطبيب العجوز فقد انكمش وجهه وأدركه ما ادرك الملك من فزع ، واخذ يتحسس قلبه وهو يصرخ :
« يا الهى . لقد مات . لقد مات الملك ! » . بينما الوصيف القوى البنية راح يولول ويبكى وهو راكع على ركبتيه تحت جثة الملك ، وقد سمعته يقول :
« خذنى معك يامولاى لا تتركنى . خذنى معك يامولاى ! » . واذكر ان صراخه هذا كان أشبه بعواء الكلب الامين فى كبد الليل . سمعت بعد ذلك صوت اقدام تقترب ، ولم يلبث الباب أن انشق وظهر منه «كوبالت» ووراءه اثنا عشر رجلا . نظر كوبالت أول ما نظر الى كرسى الملك ، ولما رآه على ما هو عليه ، كاد الدم يتفجر من وجهه . ولكنه كان رجلا سريع التفكير حتى فى مثل هذه المواقف . فقد استدار على عقبيه وصاح فى رجاله :
« عودوا الى وضعكم ، ولا اريد حرسا فى هذا الممر . وأنت يا رئيس الحرس . ضاعف الحراسة على الابواب الخارجية ، ولا تدع أحدا يغادر القصر » .

دلف بعد ذلك الى داخل المصنع ، وأوصد الباب وراح يقترب من كرسى الملك وهو يقول :

« دكتور « زيربن » ! هل صاحب الجلالة .. ؟ »
قال الدكتور والدموع تجول فى عينيه :
« لقد مات صاحب الجلالة .. »

أما أنا فرحت أقول باحساس المتسبب فى موت الملك:

« يا صاحب السعادة لقد كان كل شيء يجرى بقصد حسن . فقد طلب منا صاحب الجلالة أن

نصنع له ، « دى كوك » وانا ، تمثالا من الشمع بقصد التسلى والعبث . فقد كان يريد الملك ... » .

استدار كوبالت بسرعة كما لو كان أفعى ، والشر يطل من عينيه . وما أن رأى تمثال الملك على كرسيه حتى ففر فاه من الدهشة . وكان ينقل بصره بين التمثال والملك المتوفى . وانت تعلم كم يغير الموت من شكل الناس .

لقد انكمش صاحب الجلالة المسكين وتضاءل حجمه وتغضن وجهه واصبح أزرق اللون ، وبدا كما لو كان قد فقد نصف حجمه فى خمس دقائق . أما التمثال فقد كانت كل شعرة فيه وكل تغضن أو ثنية ، صورة

طبق الاصل للملك عندما كان على قيد الحياة . ورأيت كوبالت يمشى نحوى فى بطء . واعترف بأنى لم أكن فى يوم ما شجاعا ، كما انى كنت أكره العنف . وخيل الى أن « كوبالت » كان يريد قتلى . وفجأة رايتنى أقول له متوسلا :

« لا تسرع فى حكمك . ان « دى كوك » وأنا بريئان تماما من موت الملك وأنا أقسم على ذلك . لقد كان صاحب الجلالة يريد تمثالا لشخصه من الشمع لمجرد اللهو والعبث والمجون . ويريد تمثالا ... كهذا ... »

ورحت أضغط على الازرار ، واحرك التمثال الشمعى لنيكولاس الثالث ليقف ، ثم يخطو اثنتى عشرة خطوة تمثل خطوات من أفقدهم الروماتيزم القدرة على الحركة السريعة ، وجعله ينظر الى جثة الملك ، ثم يستدير على عقبيه ، ثم يقفل راجعا ليجلس على الكرسى وهو يتأوه ويرتعش ويصب اللعنات فى وجه كوبالت بصوت صاحب الجلالة نفسه . وما لبث أن هدأ ، الا من حركة رأسه ، ومن

اهتزاز متواصـــل . ومن المحتمـــل فى مكان هادىء أن تلتقط الاذن ، الصـــوت الصـــادر من الجهاز الالى الذى يحرك التمثال ويجعله يسير ويتـكلم . ولــكن فى قصر الملك نيكولاس الذى يضم أكثر من سبعمائة ســـاعة ، يغطى صوت الدقات والاجراس والبندولات والموسيقات كل صـــوت آخر يمكن للاذن ان تـسمعه . ولقد بلغ من صخب اصـــوات ســـاعات الملك أن خدم المطبخ فى القصر كانوا يقولون انهم حتى بعد مغـــادرتهم للقصر ، يستمر دوى الســـاعات فى آذانهم مدة طويلة .

لقد انحنى كوبالت بالفعل أمام التمثال وهو يقول : « مولاى صاحب الجلالة ! » . ولــكنه سرعان ما تمالك نفسـه بعد هـــذه الجملة وراح يقول :

« هـــذا شىء جدير بالاعتبار والتقدير » ..

وهنا قال دى كوك وفى صوته محاولة للارضاء مصحوبة برنة خوف ووجل :

« انه تمثال من الشـمع . ولا شىء أكثر من ذلك » . أما أنا فقد قلت :

« لقد جاء صورة مماثلة للأصل تماما » ، ثم ضغطت على الازرار من جديد ، فهم التمثال واقفا وخطا اثنتى عشرة خطوة ، ثم استدار على عقبيه وقفل راجعا وجلس على الـكرسى وهو يتألم ويصب اللعنات .

راح « كوبالت » يتحسس جبهة التمثال الشمعى ، ولمحنا رعشة تسرى فى بدنه . ثم مضى الى حيث كان الملك مسجى على كرسيـــه وتحسس يده . ولاحظت ان نظراته الصـــارمة الحادة تنطلق الى ما وراء الحاضر ، وقد اشتمله تفكير عميق ولــكنه سريع وعاجل . ولم

يكن من الصعب معرفة ما كان يجول فى فكره ويدور فى خلده . ذلك ان نهاية الملك تعنى نهاية «كوبالت» . وانه اذا كان الملك قد مات ، فان « كوبالت » لايكون فى وضع أفضل منه كثيرا .

وفى الحال رأيته ينظر نحوى ويقول :

« انك أنت الذى قمت بصنع جهاز ادارة التمثال ، اليس كذلك ؟ » اننى أريد أن أتحدث اليك . وأنت يامسيو « دى كوك » ألم تكن أنت الذى قمت بصنع التمثال الشمعى ؟ .. لقد خدعنى منظره لاول وهلة . انك رجل موهوب يامسيو «دى كوك» . ولست أدرى هل أصاب الملك الانهيار عندما رأى عملكم هذا يا سادة ؟ .. ان قليلا جدا من الفنانين الباقين على قيد الحياة ، فى استطاعتهم ان يفخروا بمثل هذا العمل » .

وما كنت أدرى ساعتئذ اننى أحد هؤلاء الفنانين الذين كتب لهم أن يرووا هذه القصة ، فقد كان فى اسلوب حديثه ما ينذر بأن شيئا يوشك أن يقع ، وانه يرتب فى عقله هذا الشىء السيىء العواقب .

وكنت أحس بأنى فى خطر داهم . أما دى كوك المسكين فقد أخذت أنفاسه تتلاحق ، وعيونه تلف وتدور، وصدره يرتفع وينخفض ، فى حين راح كوبالت ينادى من خلال أنبوبة فى الحائط للاتصال بالادوار السفلى للقصر قائلا :

« ميجور كريميم ! تعال الى هنا فى الحال ومعك أربعة أو خمسة من رجالك الذين يمكنك الاعتماد عليهم كل الاعتماد » ثم استدار نحوى وهو يقول :

« عنـــدما أعطيــك الاشـــارة ، دع هــذا التمثال يتحرك كما فعلت من قبل » .

وبحركة مهذبة ــ تصحبها ابتســـــامة ــ أمسك «كوبالت» بالملاءة التى كنا نخفى تحتها التمثال ، وألقى بها على جثمان الملك نيكولاس . وما أن أخذت الخطوات تقترب منا حتى أعطى اشـــارة البدء . ودخــل ميجور كريميم فى اللحظة التى ضغطت فيها على الازرار. وكان يصحبه اربعة من رجال الحرس ، وكان الميجور يتميز بندبة فى وجهه . وما ان توسطوا الفرفة حتى قام التمثال من كرسيه وســار الخطوات المرســومة وهو شــارد الفكر ، فى الوقت الذى كان كوبالت يراقبه بعين صارمة وهو يقول :

« لقد أمر صاحب الجلالة بالقاء القبض على دكتور زيربين والوصيف بوتزى فى الحال ووضعـــــهما تحت الحجز » .

أخذ الميجور والقوة التى معه دكتور زيربين الذى كاد يصعق من هول المفاجأة . كما أخذوا الوصيف الذى لم تنقطع ولولته .

وعاد التمثال فى هذه اللحظة الى كرسيه وهو يتأوه ويصب اللعنات عندما كان يهم بالجلوس .

مضى « كوبالت » مسرعا نحو البــاب ، وفتحه ونظر خارجه ، ثم أوصـــده وهو يقول لى :

« اى رجل ممتاز وقدير أنت ياعزيزى «بوميل» ، لقيامك بصنع هـــذا التمثال ! .. اننى أكاد أقول ــ وليغفر الله لى ما أقول ــ انك بعثت بعملك هذا الحياة فى دمية من الدمى .

ولكن قل لى :

« كيف تقوم بتحريك التمثال وادارته ؟ » .

وكنت بطبعي من المتواضعين ، كما كنت فى نفس الوقت من الهيابين الوجلين . الا انى فى تلك اللحظة ـ وبارادة من الله ـ رأيت ما يحفزنى على ان أقول :

« يا صاحب السعادة ، ان ذلك سرى ، وانا أرفض ان اطلع عليه أى انسان » .

راح « كوبالت » يبتسم ابتسامة تنم عن القسوة ، كما أخذ يرمقنى بنظرات مخيفة وهو يقول لى :

« حسنا حسنا ، ان تدخلى فى أسرار عملك هو من أبعد الامور التى أفكر فيها . أليس كذلك يامسيو دى كوك ؟ .. ما أعجب وما ادهش وما اقدر هذا العمل الفنى على البقاء . انه أبعد نفوذا من نفوذ الملوك فالملوك بشر يجيئون ، ثم يمضون الى غير رجعة . ان العمل الذى يجعل المرء خالدا لهو العمل الهام الجليل . وأن تكون فنانا عظيما وبهذا القدر ، فذلك هو الشيء الوحيد الجدير بالتقدير . ما اشد حسدى لك يامسيو دى كوك ؟ »

غير ان الاحمق المسكين دى كوك مضى يقول :

« انه عمل لا يعد شيئا مذكورا » . لقد كان المسكين يهذى بفعل الخمر التى تعاطاها منذ الصباح . لقد اثار حديث كوبالت نشوة الغرور لديه وداعب خيلاءه، حتى كدت أتصور انه لو كان له ذيل لراح يهزه منتشيا

ومضى كوبالت يوجه حديثه لدى كوك وفى صوته رنة تملق بالغ :

« وكيف يدار هذا التمثال ؟ » .

وكنت آنئذ لا أقوى على منع عينى من النظر الى جسد الملك المسجى على كرسيه . وسمعت دى كوك وهو يقول فى كبرياء وتعاظم :

« وما الذى يدعونى الى أن أعلم شيئا من ذلك ؟ .. يا صاحب السعادة أنا رجل فنان فنان ، لا شأن لى بصنع ساعات أو لعب آلية .. يا صاحب السعادة ، أنا لا أعلم ، ولا ارغب فى أن أعلم ، ولا وقت عندى لكى أعلم كيف تدار هذه الالة » .

وفى نغمة صوتية مختلفة تمام الاختلاف ، قال « كوبالت » :

« لقد فهمت » . ثم راح يصدر أمرا جديدا ، جاء على اثره ميجور كريميم ليصحب دى كوك الى جناحه ، حيث وجد بعد ثلاثة أسابيع وقد تفتت مخه ، وامتدت فوهة مسدسه الى داخل فمه . وذكر التقرير الطبى ان الحادث انتحار . وكان دى كوك فى ذلك اليوم قد تناول ثلاث زجاجات من الليكير المعروف باسم جوريكا .

لم يكن ذلك كل ما فى الامر ، فان الميجور عندما صحب دى كوك خارج المصنع ، أجرى كوبالت معى حديثا بالغ الخطر .

لعلى أنبأتك بمبلغ خطر وخطورة هذا الرجل «كوبالت» . وكنت تسألنى فى مطلع هذا المساء عن دى كوك ووفاته ، وكنت قد أجبتك بقولى اننى لست على ثقة مما اذا كان دى كوك مات منتحرا . ولكن عندما امعنت النظر فى أمر موته ، اقتنعت بأنه لم يمت منتحرا . ذلك أن قبضة المسدس كانت فى يده ،

وفوهته في حلقــه ، وقد تنــاثر مخه أجزاء التصقت بجدران الحجرة . ولــكن كان هنــاك جانب خاص لم يدركه أحد غيرى فى هــذا الانتحار الذى أريد له أن يسمى كذلك ، ذلك ان المسدس قد وجد فى قبضة يد دي كوك اليمنى . وكنت أعلم بحكم ما أمضيته من وقت طويل فى العمــل مع دي كوك ، انه يستعمل يده اليسرى بصفة مستديمة فى عمله . ولو شاء من هو على شاكلته أن ينتحر لامسك بالمسدس بيده اليسرى التى كان فى حيــاته يمسك بها الالات والادوات التى يشتغل بها ، ويستعمل هــذه اليــد اليسرى فى القضاء على حيــاته بالمســدس كما أريد أن تكون الوفاة انتحارا . وهنــاك أمر آخر أثار هواجسى وزاد من ارتيــابى . فبعد أن اقتيــد دكتور ديزبين والوصيف بوتزى خارج المصنــع بأمر كوبالت ، لم يعد أحد يســمع عنهما شيئا على الاطلاق .

اود ان أستميحك عذرا ، فان كل الذى رويته الان، قد حــدث فيما بعد . وكنت قد وصلت بك فى الحديث الى قولى بأنى عنــدما كنت وحــدى مع كوبالت بعــد خروج دى كوك من المصنع مصحوبا بقــائد الحرس ، اجرى معى حديثا مؤداه انه على استعداد لان يغرقنى فى الذهب ، وأن يخلع على من ألقاب النبــل ما يطمع فيه كبار الرجال فى المملــكة ، دون أن ينالها منهم الا قلة معدودة ، مقابل أن أطلعه على سر ادارة التمثال الشمعى للملك الذى قمنا بصنعه وتنفيذه دى كوك وأنا بفرض التسرية وادخال البهجة على الملك ، ومن أجل أن يأتى بواسطته على ضروب من اللهو والعبث. وعشت

طول حيـاتي جبـانا ، ولـكنني لم اكن في يوم من الايام مغفلا . ولذلك فقد عمـدت الى أن أكون هادئا هدوءا بالغا ؛ وأجبته بقولي :

« لعلني وقفت على ما ترمي اليه . فأنت يا صـاحب السعادة ، لا تساوي شيئا في غياب الملك . ومن الطبيعي انك تود أن تبقى في مركز النفوذ والسلطان مثلما أنت عليه الآن وكما كنت كذلك في أخريات حيـاة الملك ، تحكم وتنعم بكل ما تشاء فيما عدا لقب الملك .

فاذا ما وصلت أنباء موت الملك الى تانكريدي وحزبه، فانك سوف تخسر كل شيء ، بل ربما فررت انقـاذا لحياتك من موت محقق ، تاركا كل هـذا النعيم وراءك»

ثم أردفت قائلا :

« ولـكأني أرى بظهر الغيب ما تهـــدف اليه من مشروعات . فما ان تلم بكيفية ادارة هذا التمثال ، حتى تقوم بتحريكه على هواك ووفق ما تشاء . ومعروف ان الملك المسكين نيكولاس الثالث ، كان أبا لشـعبه برصيـد من الاعمال الانسانية والحدب على رعاية هذا الشعب عبر نصف قرن من الزمان . وطالما استطاع أن يظهر الملك أمام شعبه ، بقي الملك سالما من كل خطر يتهدده . وطالـما ظل الملك في مثل هـذا الامان ، نعمت أنت أيضا بالخير والامان وظللت الحاكم بأمرك في طول المملـكة وعرضها . وهـذا التمثال يشبه الملك شبها جعلك عندما ولجت باب المصنع تنخدع فيه . ولولا أن الملك الحقيقي كان قد لفظ أنفاسه الاخيرة فوق كرسيه لـما علمت شيئا من الامر . وقد أزيد الامر وضـوحا بقولي ان التمثال الذي صنعه « دي كوك » ، وبعثت

انا فيه الحياة ، يبـدو اقوى من الملك فى حال حياته . ذلك انه يستطيع ان يقف ويخطو دون مساعدة أحد، وهو مالم يكن يستطيعه الملك. بل أنه يستطيع أن يردد نفس ألفاظ الملك التى كان يستعملها وبنفس صوته . بل ان فى استطاعة التمثال أن يوقع بامضـــاء الملك الراحل » .

لقد ذكرت أمر التوقيـع بالامضـاء وانا موقن بأن الامر من الناحيـة العمليـة ممكن وسـهل التطبيق . فان أصـابع الملك المتصلبـة ، لم يكن بها من الحيوية ما يعينها على الحركة . ولذلك فانه كان يستعين بذراعه عنـدما يوقع الاوراق ، أو قل انه كان يوقعها بذراعه. فاذا انت جعلت ذراعك جامدا ، وامسكت بين اصبعك السـبابة والاصـبع الاول من يدك اليمنى بقلم وأجريته على الورق ، حصلت على الامضاء الملـكى بصـورته المرتعشة التى لا تتغير .

وكنت قد ادخرت هذه الفكرة كمفاجاة أخيرة وليغفر لى الله . واظهارا لما فى قولى من صـدق « لاننى أحسست بأنى كنت فى موقف دفاع عن حيـاتى » ، أحضرت قلم جبر ، ووضعته بين أصبعى الملك التمثال، وضغطت على السبابة لتتجه نحو الداخل ، وسرعان ما ظهر على الورق صـورة من امضـاء الملك بحروفها المرتعشة . وما أن تم ذلك حتى انفرجت الاصـابع وسقط القلم .

ومضيت أقول :

« من أجل ذلك لن ادلى لك بكل ما أعرف عن ادارة التمثال ، لانى ان فعلت ذلك كنت كمن حكم على نفسه

بالاعدام . ومن العبث أن تبحث عن ضالتك داخل جهاز هـذا التمثال ، لانك لن تصل الى اكتشاف ثلاثة أمور بالغة الاهميـة . وكل ما أستطيع أن أطلعك عليه هو كيفية ادارة السـاعة فقط . أما التمثال فان ادارته معقـدة . فهناك تسع أزرار مختلفة يجب أن لا تخطىء الاصـابع مواضـعها . وهناك كذلك أجزاء سريعة التلف يتعين تجديدها بصـورة دائمة كلما دب اليها التلف . لذلك فانى أحذرك وأطلب منك أن تتركنى وشأنى ».

لقد نطقت بكل هـذا الذى فهت به باسـان رجل عصبى أصـابه جنون مفاجىء ، وأسعفتـه بالشجاعة جراة طارئة . وما أن انتهيت من حـديثى ، وما أن أحسست إنى على وشـك الاصابة بحالة هيستيرية ، حتى التقطت زجاجة براندى كان دى كوك قد تركها فوق رف ، ونهلت منها ملء الفم مرتين .

وهنا قال كوبالت بصوت بعث فى جسدى الرعدة :

« لعلك تدرك ان فى اسـتطاعتى أن أحملك على الـكلام » .

وفى اجابنى اليه أنهيت اليه بصدق وامانة قولى :

« طبعا أنا واثق من قدرتك على ذلك . ولـكنى أرجوك أن تعدل عما تنتويه . اننى لا أستطيع أن أتحمل الالم » ثم أردفت عنـدما رايت طيف ابتسـامة على شفتيه :

« وليس الامر مقصورا على ذلك فقط ، وهو أمر لاشك فى صـدقه ، ولـكنى عندما أقول لك اننى لو كنت مكانك لـما أقدمت على ذلك ، فمرد قولى الى ان الاجزاء التى يتألف منهـا الجهاز الالى دقيقة ورقيقة

كالريش . وصحيح انك تستطيع أن تحملنى على أن أتكلم بسهولة ، وفى استطاعتك أن تحملنى بالتهديد على الكلام ، ولو باشارة من قبضة يدك ، ولكن الست تدرك ان الازرار التى اذا اطلعت على طريقة ادارتها ، فى حاجة دائمة الى يد ثابتة قادرة ، والى قدر كاف من المهارة وتجارب العديد من السنين. ولن يكون فى استطاعتك أن تدير يداك ما أطلعك عليه تحت تأثير التهديد ، بل ولن يكون فى استطاعتى أنا شخصيا أن أقوم بذلك بعد أن يتركنى تهديدك كالمخبول الذى يفقد السيطرة على عقله وحركات أطرافه . أرجوك يا صاحب السعادة ، وبكل أمانة واخلاص ، أن تدعنى وشأنى » .

نظر الى « كوبالت » نظرة ثابتة وباردة لفترة طويلة من الوقت ثم قال :

«ياعزيزى مسيو بوميل . ان منطق الاشياء يحملنى على أن أتجنب الدخول معك وانت بهذه الخبرة فى حوار انت تملك ناصيته . انك سيد أهل مهنتك جميعا ، وأعظمهم شأنا فى عهدك . ومع ذلك ، فلندع الامور تجرى كما عرضتها عليك من قبل . ودعنا نكون أصدقاء . انك أكثر حذقا ومهارة مما خمنت » .

وهذا ما حدث ياصديقى ، فان الملك الحقيقى نيكولاس الثالث قد دفن سرا فى مكان ما بالمدينة ، بعد أن تم نقله من القصر فى برميل خشبى من براميل النبيذ . بينما التمثال الذى صنعه دى كولر ، وزودته أنا بالاجهزة التى بعثت فيه الحركة ، قد أصبح هو رأس الدولة .

وقد أذيع على الشعب ، أن الملك العجوز بمعجزة من المعجزات ، قد شفاه الله وأصبح يسير الان قليلا وبمساعدة وصيف واحد . وكنت أنا هذا الوصيف . وكان على أن الازم التمثال دائما ، لادير الجهاز ، ولاصلح ما يصيبه من تلف ، ولاضغط على الازرار بطريقة سليمة . وكان على كذلك أن آخذه الى المصنع معى كل يوم ، واجلسه ليشاهد عملى كما كان الملك يفعل فى حياته ، وانصرف الى اتمام ساعة نيكولاس الكبرى، التى يعرف العالم كله انى أنا الذى أخرجتها الى الوجود . وقد حل فنان آخر محل دى كوك ليستكمل التماثيل المتحركة فى ساعة نيكولاس وهى التى تركها دى كوك قبل أن يتمها . ولهذا لاحظ الخبراء تغايرا بين ما كان قد بداه منها دى كوك وما أكمله منها من حل محله .

وقد بدت لى الامور غريبة فى أوضاعها كلما أمعنت فيها النظر . فلقد كنت أنا الحاكم الحقيقى للدولة . فقد كنت أنا السيد والصوت والمتحكم فى شخص صاحب الجلالة الملك نيكولاس الثالث . أما كوبالت فقد راح يمارس سلطانه القوى كالعهد به . وحدث عندما اتفق هو ووزير الداخلية على اصدار أمر يقيد من حريات الشعب ، أن عملت أنا بفضل سيطرتى على تمثال الملك ، على أن أجعل القلم فى يد الملك يخط خطا يشطب به الامر الملكى الذى كان يراد منه امضاؤه ثم جعلته يلقى بالقلم وهو يتأوه ويصب اللعنات دون أن يوقع الامر . وكان من اثر ذلك أن أعجب العالم كله بهذه القدرة المتجددة لمثل هذا الملك المسن العجوز الواهن القوة .

خلال هـذا الوقت ، جاء دور العزيزة مينـا فى القصة . اننى أكره أن أروى دورها ، ولـكن لابد مما ليس منه بد . فلقد كان الملك نيكولاس ، شأنه فى ذلك شأن الملك «داود» ، كما تروى الكتب المقدسة ، يميل الى أن يجدد نشـاط بدنه وذهنـه وروحه بالنســاء الصغيرات ، ويستجلب من دفء أجسادهن وشـبابهن ما يضفى عليه الحيوية . وعلى كثرة ما كان يقدم اليه من صبـايا فاتنـات فان الملك نيكولاس كان لا يميل الا الى نوع معين من الصبـايا من ذوى الشعر الاحمر ، اعتقـاداً منه بأن فيهن من عنــاصر الحيوية ما هو مفتقـد فى غيرهن مهما بلغن من جمال وفتنة .

وكان على بعد أن مات ، أن أتدبر الامر ، بحيث أقدم صبيـة تملك مثل هـذه الاوصـاف وتكون قبل كل شيء موضع ثقتى .

وكنت من جراء ذلك فى حال كاد يفقدنى السيطرة على أعصـابى من فرط الانفعال . ولك أن تتصـور استمرار الحال على هـذه الصورة مدى سنوات طوال قادمة . وهنا تذكرت العزيزة مينا لتمضى الليـل مع التمثال الشمعى مثلما كان يفعل الملك نيكولاس الثالث فى حيـاته . وكنت قد دربتها على كيفية ادارة مفاتيح وأزرار الجهاز الالى الذى يحرك التمثال ، وصنعت لها مفتاحا اضافيا مشابها للمفتـاح الرئيسى للتمثـال ، وكان ذا مقبض تمسك به وتدفعه فى ثقب من الجهـة اليسرى من جسم التمثال فوق الـكلية ؛ ثم تديره كما لو كانت تملأ ساعة ، وعندئذ يأخذ التمثال فى التحرك .

وقبل أن يقع اختيارى على مينا كنت احسب أن

بيني وبينها تفاهما وتعاطفا ـ ومشاركة فى الشعور والثقة . أليس الامر كذلك ياعزيزتى مينا ؟

والفضل يرجع « لمينا » فيما أتمتع به من لقب الشرف الذى أحمله .

كانت تقول لى :

« لماذا لا تتمتع بنفس الالقاب النبيلة التى يتمتع بها من حولك ؟ » .

ولقد كانت على حق . فقد كنت اجنبيا عن البلاد، ولم أكن ذا حسب أو نسب . ولم يكن فى استطاعتى أن اساير علية القوم واغشى مجالسهم ان لم أكن أحمل من ألقاب الشرف مثلما يحملون . وهكذا دبرت أمرى ومنحت نفسى لقبا من ألقاب الشرف والنبل ، بموجب أمر ملكى وقعه الملك التمثال ، وبموجبه أصبحت كونت دى بوميل .

فى تلك الايام، أمكننا أن نصدر قوانين كثيرة تستهدف الاصلاح فى مرافق الدولة . فقد أصدرنا قوانين ترتب ضرائب عالية على كبار الملاك من أجل القيام بما يحتاج فى الدولة للاصلاح ، وأصدرنا قوانين توجب بناء مساكن للعمال المشتغلين فى المصانع الخاصة ، وقمنا بايفاد بعثات لتحصيل مختلف العلوم والفنون من بلاد متقدمة ، كما استقدمنا خبراء لتحسين مرافق كثيرة فى الدولة كالكهرباء ووسائل النقل وانشاء صناعات عديدة فى مقدمتها التوسع فى صناعة الورق . والى جانب ذلك قمنا بنشر زراعة الدخان فى الجنوب وبدأنا نحصل على دخول كبيرة من عمليات التصدير . وكنت أعجب من اهمال تصنيع سمك « الاكا » الذى

لا يعرف العالم الخارجي عنه شيئا رغم طعمه الفريد وميزاته بين الاسماك . ولا يوجد هـذا النوع الا فى احدى بحيراتنا . ولذلك رأينـــا أن نحتكره ونقوم وحدنا بتصنيعه وتعليبه وتصـــديره للعالم الخارجي وتداوله كذلك فى البلاد .

ولو جرت الأمور فى الطريق السوى وكما أشتهى ، اذن احققت على الارض فردوسا من الفراديس ، ولكن لـكل أمر غاية ونهاية . ولم تكن لتقوى كل دسـائس ومكايد كوبالت ، وكل اثارات الديموقراطيين الاحرار على النيــل منا . ولم تكن الملـــكة فى يوم من الايام آقوى مما كانت عليه فى ذلك الحين . ولــكن ارادة الله فوق كل ارادة . وقد بدأت أول المتاعب عندما تطرق الى التمثال الشمعي الذى صنعه دي‌كوك ، التلف ودب فيه البلى . وكان فى استطاعتي أن أتغلب على ذلك باستقدام فنان من صنـاع تماثيل الشمع ، وهو أمر يسير وهين ، ليصلح ما لحق بالتمثـــال من تلف ثم العمــل على سجن هــذا الفنـــــان والتحفظ عليه بصورة مؤبدة . ولم يكن هذا الاجراء بالامر ذى البال، كما لم تكن له الاهميــة الاولى فى الموضوع . فان الاهم من ظهور الملك ، والاكبر اعتبـارا فى هــذا الشأن ، انما هو كيفية ادارة التمثـال والتحكم فيه ليتصرف الملك طبقا لمـا هو مرسـوم له ، مثل سـيره وقيـامه وجلوســه وحديثــه . كل هــــذه التصرفات كانت موكولة الى وكنت أنا المنوط بها والمسئول عنها .

وذات صباح ، قمت من نومى مفزوعا على اثر حلم مثير ، ووجدت أن يدى تهتز وترتعد ولا تستقر على

حال . وارجو الا يذهب بك الظن الى تورطي في تعاطي الخمور والادمان عليها ، فكان ما كان من أمر اهتزاز يدي . فأنا لا أشرب الا اقل القليل من الخمر . ولكن ما حل بي مرجعه القلق والفزع والاثارة . ان الامر اصبح جادا وخطرا وخطيرا للغاية . فكل شيء يعتمد على حذقي ومهارتي . وهكذا أخذ الفزع يشتملني ويستغرقني ... وكلما زاد فزعي زادت يدي من ارتعاشها واهتزازها . وكان في استطاعتي أن أستقدم أحد المتخصصين المهرة في صناعة الساعات وأدربه على ما كنت أقوم به ثم أراقبه ولا ادعه يتصل بأحد أو يحادث أحدا . الا أن ذلك كان فوق طاقة الاحتمال. فصرفت فكري عن تنفيذه . والى جانب ما لحق بيدي بدأت أحس بغشاوة ترين على عيني ولا تفارقها . ولعلك تدرك أن ارتعاش اليد وغشاوة العين هما بالنسبة لصانع الساعات حكم باعدامه .

وعلى الرغم من كل ما قمت به من اصلاحات في الدولة ، فان الديموقراطيين الاحرار كانوا يزدادون قوة بزعامة تانكريدي .

وكان التفكير في القيام بفتنة في البلاد قد اختمر ولولا وجود مينا معي فربما كنت استمرأت البقاء دون أن أفكر في ماعداه .

واني أحمد الله الذي جعلني أرى وجه الصواب . فقد فاجأتني « مينا » ذات صباح وهو تقول لي :

« ما شأنك بكل هذا ياعزيزي « بوميل » ؟ انك رجل سويسري ومعظم أموالك في بنك لوزان ، وفي استطاعتك أن تخلد الى الراحة وتترك هذا العمل .

فلقد أنهيت سـاعة نيكولاس الـكبرى ، والملك نفسه قد توفى منـذ سنـوات . فـكن فطنـا وانظر عاجلا فى أمر مغادرتك البلاد منذ الان ! » .

تبين لى أن « مينا » كانت على صواب . ولم يكن من المستطاع أن أستمر فيما كنت بسبيله من عمـل بعد أن أصابت يدى وعينى ما أصابهما . وهكذا قمت بتدبير أمر رحيـلى مع « مينـا » وحصلت على جواز سفر دبلوماسي . وكنت مطمئنا على ما لدى من مال جمعته من مرتبـاتى وما غنمته لنفسى وأودعته بنوك سويسرا . وفى صباح أحد الايام رحلت مع « مينا » الى الحدود ومنها الى وطنى بعد غيبة سنوات طويلة.

علمت بعد ذلك بقليل ، أن «كوبالت» ، حاول تحريك الملك التمثال ليقوم بتحية وفـد من الديموقراطيـين الاحرار ، قدم لعرض طلبات له ، الا أنه أخطأ مواضع المفاتيح الصحيحة ، وأدار مفاتيح أخرى جعلت الملك يجلس ويلعن من أمامه ، ثم ما لبث أن قام على قدميه وخطا الاثنى عشر خطوة المعهودة ولـكنها للأسف كانت صوب المدفأة التى لم يلبث لهبها أن أذاب شمع التمثال فالتهمت النـار الملابس وأثاث الغرفة عنـدما سـال الشمع المذاب فى أرجائها مما تسبب فى حرق جنـاح كامل من القصر . وعلا الهتاف المعهود فى مثل هـذه المواقف : « مات الملك ، يحيا الشعب » .

وتدافع الديموقراطيون الاحرار ليتسلموا زمام الحكم الا أن العمال الاشتراكيين سرعان ما وقفوا فى سبيلهم ثم أطاحوا بهم . وذاع وشاع ان العمال الاشتراكيين أطلقوا الرصـاص على الملك وانتهى بذلك حكم عائلته.

أما « تاكريدى » زعيم الديموقراطيين الأحرار فقد نفى خارج البلاد .

وعلمت مؤخرا أن « كوبالت » عندما فر من البـلاد ذهب الى احدى جمهوريات امريكا اللاتينية حيث ادار ناديا ليليا . ولعلى لا أبالغ اذا صارحتك بأنى كلما تذكرت هذا الرجل أعترتنى رعدة .

الانطواء

كنت ذات يوم أسأل « أدز » ، عما ينتـــابه من مشاعر ، وما يتنازعه من أحاسيس ، عندما يرى صديقا أو حبيبا ، طالت عليه غيبته ؟

وجم قليلا قبل أن يقول :

لقد كان لى ذات يوم مثل هذه الصداقة أو الحب.

فسألته :

ومن تكون هذه التى أحببت ؟

أجاب بعد قليل باستنكار :

أحببت ؟ أى نعم . من عساها تكون من احببت !

قلت :

« سيدة ! »

أجاب فى تهكم :

« سيدة ؟ »

« اذن فهو رجل ! »

اشمأز وهو يقول :

ان الرجال ليسوا سوى تراب أو رماد .

« لا أظن أن يكون من أحببت طفلا أو صبيا !

أبدى نفوره وهو يقرر :

انما الرجال نباتات ضارة وما الاطفـال سوى بذور هذه النباتات .

قلت :

لم يبق الا ان افترض حصانا أوكلبا تمنحه صداقتك!

أجاب :

ان الخيل والـكلاب ، يماثلون الرجال سوءا ، فانهم على شاكلتهم ! انها تعجب بالرجال . انها حيـوانات حمقى .

قال ذلك وهو يطلق صرخة كانت مكبوتة فى صدره.

سكن بعد ذلك لحظة كانت تكفى لتدخين سيجارة . وكانت لحظات سكوت « أدز » ، تبدو صعبة الاحتمال لمحدثه . وكأنما كانت تحمل التهديد بشىء . انها كانت تحملك على التفكير فى خشونة الصخر ، أو تدفع بك الى قصور الموت ، أو القنوات المهجورة .

لبث قليلا على تجهمه وسكوته ، ثم أرسل ضحكة قصيرة خشنة ، كما لو كانت شيئا يتحطم فوق جليد متجمد .

وأردف قائلا بتعجب :

ماذا تعنى الصداقة والاصـدقاء ! لا يحتـاج الى الاصـدقاء سـوى الجبناء . فأنت تبحث عن الاصدقاء لأنك تخاف من بقائك وحدك . وأنت ترى فى أصدقائك الذين تختارهم ، صورة من أحسن ما تحب أن تراه فى نفسك . صـداقة ! وأصدقاء ! هـذا امر بالنسبـة لى عجيب .

أما النسـاء ، فهن أكثر عجبا . لست أدرى ؛ ماذا بهن يستأهل أن يضحى الرجل بعمره من أجله ؟

ان المعيشة مع المراة شيء مستحيل . انها ثرثارة . لا تدع لك فرصة للـكلام .

ثم أنت تعولها طول العمر ولا تقنع ، ولـكنها تطلب أن تضحى بروحك وراحتك من أجلها .

وهى تحيا وتزداد لحما فوق لحم ، وفى الحين بعـد الحين تتمسح فيك مثلما تتمسح القطط بأصحابها ، علامة الرضى المفاجيء القصير ، لتشعرك بأنك تملكها ، وانها ملك يديك . ولن يمنعها زواجهـا منك ، من أن تلبي رغباتها كلما شاءت واستطاعت .

استمع الى . انى رجل مسن . وقد عرفت عددا وافرا من الرجال والنســاء . ولـكنى لم أستطع أن أمنح أحدا من الجنسين صداقتى . انتى أكتفى بنفسى واعيش مع روحى !

لقد عرفت كل طبقات البشر ، العليا منها والدنيا ، ومن جميع أقطار العالم . وفى القصـور المنيفة أو فى الدمن والمستنقعات وفوق سفوح الجبال ، أو فى قاع الوديان . وفى الغابات كانوا أو فى الجزر والشطئان . ولـكنى أستريح الى الائتناس بروحى ، ولهذا أعيش بمفردى ، منطويا على نفسى .

وكان ذلك شأنى دائما ، باستثناء مرة واحدة .
حدث ذلك منذ أكثر من خمسين سنة .

لقـد أبحرت من فلاديفوسـتك عندما رحلت عن روسيا . وكان ذلك فى عمل على ظهر مركب كريه ، كان يشق طريقه نحو البحار الجنوبية ، مجتازا بحر اليابان وجزائر ريوكيو .

وكان اسم المركب « فارفارا » . أما قبطان المركب

فقد كان خنزيرا ، كما كان بحارته على شـــاكلته من الخنازير .

اما الفرض من الرحلة ، فقد كان من اجل مزاولة التجارة والبيع بين الجزر . وكنا نحمل تبغا ومسابح وبعض البـــــلط غير الحادة .وبراميل من المشروبات الـكحولية .

وكنا نسعى الى استبدال هـذه البضائع التافهة ، بحبات من اللؤلؤ الذى يستخرجونه من المحار ، وهو أمر يبعث على الاشمئزاز . ولـكن ما الحيلة فى نسائنا البيضاوات اللواتى يحببن أن يطوقن أعنـاقهن بهـذه اللآلىء .

وكانت البحار الجنوبية تزخر بهذه الحبات من اللؤلؤ وبغيرها من التوافه .

أما الرحلة فقد كانت سيئة الطالع .

هبت علينا عاصـفة هوجاء ، قبـل أن نبارح بحر اليابان . وقد تركت العاصفة المركب فى حال بالغ من العطب .

كما أن شحنة المركب ، أصـابها التلف والفساد .

واجمع كل من تضمه المركب من بحارة وخدم ، على انه من الجنون أن تتقدم السفينة نحو غايتها من هذه الرحلة .

ولـكن القبطان العنيـد ، اقسم بانه سوف يطلق الرصاص على أول رجـل يجرؤ على رفع صـوته فى معارضته لاوامره .

أما عن نفسى ، فقد كنت بعيـدا عن الاهتمام بما يجرى من حولى . فقد تملـكنى شعور غريب بثقـة

بالغة ، بانه مهما يكن من أمر من سيموت من البحارة ، فاني سوف أعيش .

وهكذا قمنا باصلاح ما أفسدته العاصفة من المركب « فارفارا » على قدر ما نستطيع ، ومضينا نحو غايتنا .

وكنا في حالة بالغة من الكآبة والغم . ولا تسألني أين كنا آنئذ ، لانني لم أكن اعرف . وبعد قليل من الوقت ، انقضت على المركب عاصفة أخرى ، كانت تزمجر كأنها الشيطان الذى حطم قيوده وانطلق من عقاله ، وبدأ من شدة العاصفة انها تنوى هذه المرة أن تدمرنا تدميرا كاملا كما تفعل القنبلة بهدفها .

ولقد انتهى الأمر بالبحارة الحمقى الى فقدان كل أمل

وما كان منهم الا أن فتحوا زجاجات من الفودكا ، وراحوا يشربون منها بأكفهم ، وثملوا الى حد فقدان توازنهم عندما كانت المركب تتأرجح بعنف كان يطيح بهم فيتساقطون فى البحر واحدا بعد الاخر ، ويموتون وهم يحلمون تحت تأثير الفودكا أنهم يتبادلون القبلات مع من يحبون ، وينشدون الاغانى لاولئك الغوانى ذوات العيون الزرقاء ، ويتذكرون مواقفهم معهم فى لقاءات الحب فى المروج والرياض الخضر ، فى الوقت الذى كانت أسماك القرش تلتهمهم وهى تلتف حولهم التفاف سيدات الطبقة الراقية من الغوانى ، حول مليونير ، يتنافسن على الفوز به .

وكانت هذه الخاتمة الاليمة ، هى نهاية حياتهم .

أما القبطان فيبدو أنه كان ، كما خمنت ، حريصا على النجاة بنفسه من هذا الهول .

فقد اندفع هو والضابط الاول ، لأخذ القارب الوحيد الباقي من قوارب النجاة . ولا حاجة لى الى القول ، بأنى اندفعت معهما بنفس حرصهما على النجاة ، ورغبتى مثلهما فى الحياة .

ويبدو أن وازعا من التعقل منعهما من ابعادى عما أنتوى ، أو لعله ذلك الشيء الخفى فى أسارير وجهى الذى يجعل الناس تتحاشانى وتتردد فى أن تحتك بى أو تثيرنى .

كان البحر فى جيشان وهياج مستمر ، يقطع اى أمل فى أى بادرة لهدوء العاصفة وتوقف الرياح .

وكانت مركبنا تتقاذفها الامواج كما لو كانت قطعة من الفلين ترتفع مع الموج الى أعلا ثم لا تلبث أن تهوى بين حائطين من المياه الخضراء فى بحر عاتى القوى .

وكان آخر ما رأيته من مركبنا الكبير ، اشلاء من الخشب .

وهكذا رأيت نفسي وحيدا مع رجلين فى قارب النجاة ، وقد راحا فى نوم عميق من اثر ما بذلاه من جهد شاق متواصل .

ولم ألبث أن نمت أنا الآخر من فرط التعب .

حدث ذلك قبل حلول الفجر مباشرة . وعندما استيقظت كانت الشمس تلسع وجهى . وكانت أشبه ما تكون بلفحة النار التى تهب من باب الاتون عندما يخرجون منه الحديد المنصهر .

كان القبطان فى هذه اللحظة قد استيقظ ، وبدأ عمله باصدار الامر لى بقوله :

« افتح الخزانة التى وراءك وناولنى الماء » .

فعلت ما أمرنى به ، واعنى بذلك أننى ناولته أحد برميلين صغيرين كانا فى الخزانة ، وأخرجت معه برميلا صغيرا من البسكوت .

راح هو وزميله يشربان كالاسماك ، ثم ناولانى البرميل فشربت بدورى . ثم أكلنا بعضا من البسكوت .

كانت الشمس اللاهبة ترتفع الى كبد السماء . وعدنا الى الاستلقاء ونحن نلهث .

لم يكن قد بقى من برميل الماء الصغير سوى جالون واحد . ولم يكن يعلم سوى الشيطان أين نكون . ولم أنطق بحرف .

ومر اليوم ، وجاء الليل ، وتلاه يوم آخر . وكان برميل الماء قد أصبح أشد جفافا من العظام فى الصحراء .

صاح القبطان موجها أمره لى :

« ناولنى البرميل الآخر » .

فنظرت اليه وأنا أقول :

« ليس هناك برميل آخر » .

راح كل منهما بعد سماعهما قولى ، ينظر لصاحبه، مثلما ينظر المجرمون بعضهم الى بعض وهم فى زنزانة السجن ، عندما يسمعان السجان يطرق بابهم .

أما الضابط الاول ، فقد غلبه اليأس وأفقده عقله ، ولم يلبث أن وضع وجهه بين يديه واسترسل فى بكاء أو نشيج لم تسعفه فيه الدموع بعد أن جفت .

ومضى ليل طويل كأنه سنوات ، وأقبل نهار آخر كان بشواظه كما لو كانت لسع الكرابيج ، الامر الذى لم يحتمل الضابط الاول مقاومته ، وفى لحظة مفاجئة من

يلبس وفقدان عقل ، فقفز الى البحر، حيث كانت اسماك البحر فى فرح غامر بلقياه .

أما القبطان فقد اغتم واكتأب واختل عقله هو الآخر وراح يصرخ فى طلب المـاء حتى جن . وكان من مظاهر جنونه انه كان يتخيل المحيط الازرق الذى كنا نتأرجح على أمواجه ، انما هو ذلك الجدول الهادىء الذى يمر بقريته وتؤمه الفتيات والنساء ليغتسلن فيه ويغسلن ثيابهن .

مال برأسـه على حافة المركب ليتبرد بهواء البحر، ناسيا أن من عادة سمك القرش أن يقفز عاليا لينتزع غذاءه ، وقد وجد ضالته فى الرأس المائل على الحافة ، ثم فى صاحبها .

كان اسم هـذا القبطـان ، اذا لم أكن مخطئا هو :

« أفيرتشينكو » . ولـكن ، هل هناك من يهمه معرفة اسمه ؟

وهكذا اصبحت وحيـدا فى مركب النجاة . ورحت أشرب من برميل المـاء ، الذى أخفيته بعنـايـة عن القبطان والضابط ، نقطة نقطة ، وأتناول قدرا ضئيلا من البسكوت عند الحاجة .

ولم يكن يهمنى أمر بقائى وحدى . فلقد كنت بطبعى انفر من المجتمعات ومن صحبة الغير .

غير أن ما كنت فيه من يأس لا مخرج منـه ، بالاضافة الى تقيدى بالبقاء فى هذا القـارب الصغير ، الذى يمضى متأرجحا بين ارتفاع وانخفاض ، وانخفاض وارتفاع ، ولا شىء حولى سوى سماء كنت أراها كما لو كانت بيتـا يحترق ، وبحر يغطى وجه الدنيا كلها.

كل هـذه الرؤى ، حملتني على أن أحن الى صحبة أحد . وصدقني اذا قلت لك أن مثل هـذا الشعور لم أحس بمثله من قبل ، وفى أى يوم من الايام .

ولعل تأثير سيـاط الشمس اللاهبـة ، هو الذى حملنى على التشوق الى هذه الرغبة الظامئة مع نفسى

ظللت أنظر بعينى المقروحتين ، فلا أرى من حولى شيئا سوى هـذا الفراغ اللعين . حتى خيل الى أن ثقبـا قد انفتح فى صدرى ، وأن قدرا من هذا السكون والفراغ قد تسللا الى داخلى .

بقيت على هـذه الحالة أياما ، وانا أشرب من ماء البرميل نقطة نقطة ، حتى لم يبق منه الا ربع لتر ، والا بسكوتة واحدة ، هى آخر ما تبقى . أو قل أن هـذا القدر الضئيل من المـاء والبسكوت ، هو آخر ما كان يربطنى بهذه الحياة ، وهى كما ترى خيـوط واهية .

وكنت أعلم فىآخر المطاف أننى سألحق بمن سبقنى، وسوف أفقد عقلى ، واسترسل فى الفنـاء وفى تخيل الثلوج والمروج والوديان .

ولـكني اعتزمت أن أعيش أطول فتـرة ممكنـة . فكسرت البسكوتة الاخيرة ، التى سأكافح بها فىسبيل البقـاء حيـا فترة من الزمن ، وهـذا واجب الانسان فى الحياة .

وما أن كسرت البسكوتة حتى ظهر صرصار، تشبثت به ، ولـكنه سـقط منى وحـاول أن يختفى فى قاع القارب .

وكنت أتابعه بعينى ، ورحت أمد أصـبعى حتى

امسكت به ورفعته الى اعلا . ولـكنه تخلص من اصبعى واخـذ يجرى على راحة كفى حتى اسـتقر فوقها وهو يحرك رجليه . وما كان منى الا أن وضعت كفى الاخرى عليه لأحميـــه من لهب الشمس ، وهكذا أخلد الى السكينة .

ورحت أسحق البسكوتة فتاتا وأبل الفتات بأصبعى المبتل بالمـاء ، وكلى حرص على أن أحقق رغبة تملكتنى فى أن أحافظ على حيـاة هـذا الصرصـار ، ليعيش معى .

وكان فى عملى هـذا ما يبعث على الشعور بأن بعضا من العالم ما يزال يعيش ، وانه لابد أن تكون هناك أرض فيما وراء البحر، وراء هذا البحر المتلاطم الفتاك

وكان من شأن هـــذا الشعور أن يزيد فى اصرارى على العيش ورغبتى فى الحياة والـكفاح من أجـل أن أعيش .

غير أن هـذا الشـعور أخـذ يضعف سـاعة بعد ساعة ، كما كنت اقترب بين لحظة واخرى من جنون يترقبنى .

وجاء الليـل حاملا نسمة باردة . وكان الصرصـار ما يزال بين كفى . وكنت أتجنب كل حركة حتى لايفزع منى الصرصار . وانصرم ذلك الليل ، كما تبخرت معه ونفدت آخر جزء من آخر بسكوتة كانت معى .

ولم يلبث الفجر ان اشرق بنوره .

وللمرة الاولى فى حيـاتى ، أحس أننى أنا الآخر لست الا شيئا تافها متناهيا فى الصغر ، فوق صفحة كف ذات قوةعاتية ، ليس أيسر عليها من سحقى .

وعنـدما كنت القى ببصرى الى المـاء ، الذى كان يبـدو ساكنا كما لو كان صفحة مرآة ، التقى بصرى بشراع مركب كبير .

لقد كانت بالفعل مركبا لا خيالا كما توهمت .

وكنت فى حال من الضعف ، لا يتسنى لى معهـا أن أقوم بأى اشارة .

أحسست بأن رأسى تدور ، واكتنفنى ظـلام ، لم البث بعده أن غبت عن وعيى وفقدت ادراكى .

أفقت على ماء أتجرعه من يد ممدودة به الى ، ووجدت نفسى مستلقيا على ظهرى فوق سطح مركب نرويجى ، وعيناى مثبتتان على وجه أحمر مسـتدير كأنه قرص الشمس .لقد كان وجه رجل ذى لحية صفراء .

أحاط بى رجال رأيتهم يقدمون الى الملابس والاغطية والطعام والشراب والحنان .

لم يشغلنى كل ذلك عن النظر الى راحة كفى التى لم أجد بها زميلى الصرصار . لقد كنت ضائعا وحيدا فى مركب ليس بها سواى ، وفى بحر كله فراغ ، مدى أربعين يوما وليلة . ولـكنى أشـهد بأنى عندما تأكدت أن الصرصار قد ذهب الى حال سـبيله ، أحسست لاول مرة فى حياتى بالوحدة ، وباللهفة الى ذلك الشىء الذي افتقدته .

التوأمان

ربما كان أهالي الكربات ، أكثر شعوب الارض تعلقا بالمجهول والغيبيات والخيالات المرعبة .

بل لقد قيل ان « دراكولا » جاء من هذه البلاد ، التى يقول سكانها من الفلاحين ـ بعد الاستعاذة من الشيطان ـ « ان أشباح الموتى لا تخاف من شيء ».

لقد كانت هنجاريا والنمسا دائما ، مواطن لقصص مصاصي الدماء والارواح التى تتقمص ذئابا ، والسحرة والعرافين ، وما يرتبط بأعمالهم من هوس وسحر .

بدأت دراسات التحليل النفسى فى هذه المناطق . ولم تلبث أن زخرت بالمئات من المعالجين الروحانيين، كما زخرت بالعرافين الذين جاءوا اليها من أغلب الدول الاخرى ، ليتلقوا دراسات على يد « فرويد ويونج وأدلر وجروديك » .

وقد ذهب معظم هؤلاء المعالجين الروحانيين فى ممارسة ما تعلموه ، الى حد الاقتناع مما تلقوه ، اقتناعا لا يتسرب اليه أدنى شك أو ارتياب .

وهكذا تحول عملهم ، الذى ترمز اليه بومة محنطة، الي عقيدة واقتناع .

والعجيب فى أمر هؤلاء المعالجين والروحانيين ، الهائمين فى ضباب الاوهام ، أن معظمهم يشكو ويعانى بالفعل من حالة انهيار عصبى دائم .

والمجنون الذى لا يعى ما يقول ، هو وحده الذى يفرغ ما فى قلبه وعقله بين يدى المعالج الروحانى .

ويخيل الي أن الاعتقاد في هذا العلاج الروحانى وهم كبير . وعلى الانجلو ـ ساكسون ان يتركوا أبحاثهم عن هذا النوع من العلاج ، الى حال سبيله .

انهم يجهدون ويكدون فى سبيل اضفاء صيفة العلم على ما لايمكن أن يتبلور ليصبح علما أو فلسفة خالصة .

وهو فى النهاية ، يكشف عن قصص معادة من أحداث الماضى الغابر ، وتقارير وأبحاث غير ذات قيمة علمية ، الي جانب ادخال الجنس فى تحليلات مملة وبعبارات مغلفة وغامضة غموض اللغات المندثرة الميتة .

هذا ما كان يؤكده ويصر عليه ، طبيب الامراض العقلية الذكى الاريب ، الذى سوف أطلق عليه اسم دكتور « ألمونا » ، عندما قابلته فى اجتماع ضم نخبة مختارة من رجال العلم فى حفل « كوكتيل » .

والطبيب المذكور ، يدير مصحا من المصحات الراقية التى تتقاضى أجورا مرتفعة للاقامة والعلاج من حالات الادمان على تعاطى المخدرات والمشروبات الروحية .

ودكتور « ألمونا » رقيق لطيف المعشر ، يبدو دائما فى حالة نفسية عالية ، كما يتفانى فى الاهتمام بنفسه

ولسخرية هذا الطبيب ، طابع لطيف محبب . فهو على سبيل المثال ، يعتقد فى كل شىء ، ولكنه لايثبت فى اعتقاده على شىء .

وهو مقتنع بأن الانسـان ، وينطبق هذا على نفسه، كلما تزود بشيء من المعرفة ، وجد أنه كان يعلم ذلك الذى تزود به . وأنه اذا كان ينقصه شيء من العلم ، فسوف يظل ما ينقصه على حاله .

وذات مرة ، خلال أحاديثنا ، قال لى فى اجابته على سؤل معين :

« انني اعرف كل أجزاء المخ . وتعقبت تلافيف كثير من الامخاخ . وتقصيت انماطا من تصرفات كثيرين من بين الرجال والنســاء . ولا استطيــع أن أزعم بأنني وقفت على شيء .

وأرجو أن تصدقنى فى أننى كنت مخلصا فى محاولاتى .

ذلك أن مخ كل انسان يشكل كيانا مستقلا له طابعه الخاص . وأن الطبيب الذى يمكنه أن يصــل الى ما ينطوى عليه مخ الانسان ، لهو سعيد حقا ، اذا بذل فى ذلك كل عمره .

وانا بكل اخلاص ، لا احاول أن أشرح شيئا ، أو أفسر شيئا .

ولقد عالجت هــــذا الامر ، وحاولت أن أتفهم وأستقصى ، ورغم ذلك ، ظل كل شيء مما تقصيت نظريا لا يستند الى قواعد العلم وقوانينه .

وهكذا ، تبين لى أن التحمس للأبحاث الروحيــــة والنفسية ، لا يستند الى قواعد من العلم ، بقــــدر استناده الى أوهام ، والى محاولات غير مجدية » .

وفى الحفل الذى أشرت اليه فيما تقدم ، وهو حفل الـكوكتيل الذى ضم لفيفا من ألمع رجال العلم ، للبحث والجدل ، كان دكتور « ألونا » من بين الحضور .

وكان يستمع وهو يهز رأسه كالببغاء ، وقد اقفل

أحدى عينيه ، وبدت عليه امارات اللهفة واليقظة والانتباه والمتابعة لكل ما كان يجرى من نقاش .

وكان أحد الاطباء من الحاضرين ، لايحضرني اسمه ، يتحدث عن موضوع « المشاركة فى الشعور بالألم » .

وقد أبان بصورة مؤيدة بالوقائع الثابتة ، عن حالة آنسة أطلقت صرخة فى الساعة الثالثة من صباح يوم ٧ ينـاير عام ١٩٤٤ ، وهى تصيح مولولة : « لقد أصبت بالرصاص » .

وكانت تشير الى مكان فى أعلا صدرها تحت الرقبة ومن الامور التى بدت غامضة ، أن نقطه زرقاء ، ظهرت فى المكان الذى أحست فيه بالألم ، الى حد أنها كانت لا تتحمل مجرد لمس هذا الموضع .

ولقد تبين فيما بعد ، أنه فى نفس هذه اللحظة وهذا اليوم ، أصيب أخ لها كان يعمل فيما وراء البحار ، بطلق نارى أصابه فى نفس الموضع تماما ، الذى اشارت اليه شقيقته عندما صرخت متألمة مما أصابها .

وهنا ، هز دكتور « ألمونا » رأسه وهو يقول للدكتور المحاضر :

«هذا أمر لا يتطرق اليه ادنى شك .. فلهذا الحادث سوابق من نوعه » .

ولقد مرت بى حالة ، أعتقد أنها اكثر غرابة مما رويته عن « المشاركة فى الشعور بالالم » .

وراح دكتور « ألمونا » وهو يبتسم ، يروى من وراء دخان سيجاره ، قصته التى أشار اليها .

***

حضر الى عيادتى شقيقان ، دعونا نطلق عليهما اسمى « جون ، وليم » .

كان ذلك فى فيينا فى ربيع عام ١٩٢٤ . وكانت الحالة المرضية واضحة وضوحا ظاهرا وباطنا ، وتشخص على أنها من حالات الادمان الجنونى على المسكرات : وما يصحبها من تسمم كحولى .

على أننى رغم هذا الوضوح ، لاحظت تعاطفا فى الشعور ، ومشاركة فى الاحساس بين هذين الشقيقين ، بصورة فريدة .

فقد كان ما يأتيه أحدهما ، نتيجة ضعفه لشىء ما ، تظهر آثاره وعواقبه على الشقيق الآخر ..

كان « وليم » يشرب يوميا ، زجاجتين من البراندى فى حين كان شقيقه « جون » يعاف الخمر ومن يقربها . بل لقد كانت رائحتها وحدها ، تثيره وتصيبه بالاشمئزاز . وكان «وليم» يدخن خمسة عشر سيجارا كبيرا كل يوم ، فى حين كان « جون » ، يكره رائحة الدخان ويتأذى منها اذا اضطر الى شمها .

وعليكم ياحضرات السادة ، اذا شئتم ، بحث وتحليل وتعليل هذه الظاهرة التى سأحدثكم عنها الآن .

كان « وليم » السكير المدمن المفرط فى التدخين ، يبدو أليفا ، وتلقاه ودودا ، فى أحسن حال .

بينما كان أخوه « جون » ، الذى لا يذوق الخمر ، ولا يدخن يبدو فى حال تظهر عليه فيها كل أعراض الادمان على الخمر ، ومظاهر تليف الكبد ، واضطراب نبض القلب الناتج عن التسمم النيكوتينى .

ولا أظن أن طبيبا من الاطباء ، أسعده الحظ ، وساق اليه مثل هذه الحالة .

ففى جانب ، نجد « وليم » الذى يكاد يستنشق البراندى بدلا من الهواء ، وينفث الدخان من فمه كما

لو كان مدخنة ، فى احسن حال من النشوة والسعادة الفامرة . بينما نجد فى الجانب الآخر « جون » ، بأنفه الملتهب الاحمر ، ووجهه الدموى المتغضن ، وعيونه البراقة الزائغة ، وأصابعه المرتعشة التى لا تثبت على حال فى اى وضع ، وهى أعراض تلازم المدمنين على الخمر ، وتؤدى بهم ، لا محالة ، الى علة عقلية أو نفسية .

أقول ، نجد « جون » على هذه الحالة ، رغم انه لا يذوق نقطة واحدة من الخمر ، ولا يدخن سيجارا واحداً فى العام لا فى اليوم .

وكان « جون » وهو فى عيادتى ، هو الذى يدير معظم الحديث . كان يقول :

« أرجوك يا دكتور « ألونا » بحق السماء ، دعه يقلع عن الخمر ! انه يتعمد قتلى . انه يقتل نفسه بهذا الادمان ، ويقتلنى معه » .

وكان « وليم » يقول :

« لا تعر اهتماما لما يقوله « جون » يادكتور، فهو عصبى المزاج . أما عن نفسى فانى آخذ الامور ببساطة»

وعند ذلك صاح « جون » :

« لعنك الله يا وليم ، انك تقضى على بلا رحمة ، وتقول انى عصبى .

وسمعت « وليم » يقول لى بهدوء عجيب :

« اعطنى بعضا من البراندى يا دكتور » .

فى هذه اللحظة ، كانت ملامح وجه « جون » وأساريره ، قد ارتسم عليها من الرعب والفزع ، ما يدعو الى الدهشة والعجب . ولم تلبث يداه أن اخذتا فى الاهتزاز والرعشة ، الامر الذى حمله على أن

يبذل جهدا كبيرا فى ضمهما بشدة ، ليوقف ارتعاشهما المستمر .

ولم يقع لى أن رأيت من قبل ، على ملامح أحد ، مزيجا يجمع بين الرغبة فى شيء ، والنفور منه ، مثل ما ظهر بوضوح على وجه « جون » .

فكان يقول :

« لا .. لا .. » ثم يعود ليقول لى :

« الامر متروك لك اذا وافقت يادكتور ... »

وانه لما يؤسف له أن أقول ، ان الامر بدا لى كما لو كان «جون» ، وهو فى تمام عقله ، وفى كامل مظهره ، خنزيرا غينيا يجرى عليه تجربة من التجارب .

وفى مثل هذا الوضع ، تصبح الناس جميعا خنازير غينية .

والى جانب ذلك ، فمن أين لـ « جون » أن يقرر ، وهذا حاله ، أو يعترض على ما يأخذه « وليم » ، الهادىء الدمث ، أو مايدع ؟

وبدأت على سبيل التجربة أعطى « وليم » قليلا من البراندى فى قدح صغير ، فى مثل حجم عقلة الاصبع ، سرعان ما ابتلع محتوياتها ، ثم لم يلبث أن ابتسم لى ابتسامة تبعث السعادة فى نفس من يراها .

ولكم ، أيها السادة ، أن تصدقونى أو تكذبونى ، ان قلت ان أخاه « جون » سرعان ما أخذ فى اثر ذلك ينتابه الفواق والتجشؤ ، كما راحت عيناه تطرفان سريعا ، بينما راح « وليم » يضم ذراعيه فى راحة وتؤدة ، ويضعهما على صدره ، بعد أن أشعل سيجاره الذى مضى فى تدخينه بلذة ومتعة .

هل تقررون أن هذا الذى جرى ، هو التعاطف

والمشاركة فى الشعور بالألم ؟

كم كنت أتمنى ان انضم اليكم فى هـذا التقرير أو التشخيص . ولـكنه ، كان كما تقررون ، مع اصطحابه يميل « الى الانتقام » وبدافع من حقد دفين .

وأخيرا ، وبعد فترة من السعـال الحاد ، وميل للقىء ، قال الشقيق « جون » :

هل رأيت يادكتور ؟ هل رأيت بعينيك ؟ هـذا ما يحملنى على أن أضع حدا لمـا أعانيه . ثم هو الى جانب ذلك لا يدعنى أعمل . هل تدرك ذلك ؟ انه يمنعنى من أى عمل !

وكان يبدو على الشقيقين « جون ووليم » أنهما على ثراء . فقد كانا يستقلان سيارة « مرسيدس بنز » عندما شخصا الى عيادتى . وكانا يرتديان ملابس أنيقة غالية ، ومن صنع أكبر بيوتات الأزياء . كما كانا يتزينان بجواهر غالية .

ومهما يكن من أمر رماد السيجار الذى كان دائما يتطاير فوق ملابس « وليم » ، الا أن ذلك لم يكن ليقوم دليلا على اهماله فى ملبسه ومظهره ، وعدم اهتمامه بهيأته .

على أن « جون » المرتجف ، كان يبدو على أحسن حال من النظافة واكتمال الاناقة .

وكم وددت أن أعرف اسم الكواء الذى كان يبعث اليه بملابسه الانيقة .

وكان يتزين بساعة من الذهب والبلاتين ، مع سلسلتها الذهبية . وكان يضع فى الاصبع الصغير من يده اليسرى ، خاتما من الذهب يعلوه فص كبير من الماس . وفى ربطة عنقه توسط مشبك ذهبى يزينه

فص من الماس يبلغ وزنه قيراطان .
ولم أستطع أن اربط بين كل هذه الاناقة الغالية ؛ وما كان يشوبها من اهمال واضح .
كان يبدو كما لو أن أحدا اقتحم عليه مسكنه عندما كان يستعد لارتداء ملابسه واكمال زينته ، فراح يسرع فى اللبس والتزين ، بحيث تركته العجلة فى حالة ظاهرة من الفوضى والاهمال .
كانت ملابسه على أحسن ما تكون عليه الملابس من حياكة غالية ، كما كان حذاؤه نظيفا لامعا .
أما شعره ، فقد كان مهوشا وفى حاجة الى عناية وتصفيف ، وكذلك كانت أظافره ، لم تستكمل ما يجب عليها أن تكون عليه من نظافة واهتمام .
أما الشقيق « وليم » فقد كان مرحا بشوشا بصورة ظاهرة . وان كانت قذارته تؤذى الشم والنظر ، رغم ما كانت عليه ملابسه الانيقة وماكان يتحلى به من جواهر وذهب وزمرد ، استكمالا لمظهره الفاخر .
قلت معلقا على ما أشار اليه « جون » من حرمان أخيه له من العمل :
«ماذا تقصد بالعمل يامستر جون ؟ صارحني القول؟»
فأجابنى وهو يبدو فى حال من تنتابه حمى نشيطة الفعالية ، تسبق النوم الثقيل الذى يعقب حالة الخمار من سكر بين .
« اننى لست فى حاجة الى العمل . ولا أطلبه لسد حاجة . فقد تركت أمى لنا ما فيه الكفاية وما فوق الكفاية فلا تخف على أتعابك يا دكتور ... »
« دع أمك خارج هذا الحديث أيها الفأر الصغير . لقد كنت دائما تثقل على أمك . تلك الصبية الكبيرة

الطيبة . اعطنى يادكتور قليــلا من البراندى . اننى بدأت اشعر بالضيق والضجر » .

وقبل أن أحول بينه وبين ما يريد ، كان « وليم » قد أمسك بالزجاجة وابتلع ربع لتر منها دفعة واحدة

ولم يكن فى استطاعتى أن أســتخلص من ذراعيــه المفتولتين تلك الزجاجة التى ابتلع منها ما ابتلع ، الا بكل صعوبة .

وبعد أن سددت الزجاجة ، رأيت «جون» المسكين ــ وصدقونى فيما أقول ــ يصيح صارخا :

« ان نفسى متقززة وأريد أن أتقيأ . ارحمونى فقد سئمت نفسى هذه الحالة » .

فى نفس تلك اللحظة ، كان « وليم » يلوك فى سعادة ونعيم الجزء المتبقى من سيجاره ، ويتمتم بأغنية خفيفة سمعت منها مقطعا يقول مطلعه :

« أيتها السيدة كلارا » .

ومن عجيب أيها السادة ، ان «جون» ، رغم ما كان فيه من ضنى ، يسببه له أخوه ، راح يشارك «وليم» فى أدب ظاهر ، فى غنائه هذه المقطوعة :

أيتها السيـــــدة كلارا
لقد رأيتك ترقصـــين
وكان جمـــالك أخاذا
ولا عجب اذا تبعتــك
مسلوب العقل والارداة

***

ولم يستطع « جون » أن ينافق أخاه لأبعد من ذلك فقد توقف فجأة عن الغناء ، وهو يقول لى صائحا :

« هــذا هو كل ما يجيده فى الحياة . هل أدركت

الآن قدره ؟ وهل علمت ما هو عليه من تفاهة ؟ انه خنزير . انه حيوان فظ . انني على عكسه اميل للموسيقى الكلاسيكية فانا أهيم « بباخ » وأعشق « موتزار » ، وأعبد « بيتهوفن » . ولكن «وليم» يمنعني من هذه المتعة اذا شرعت فى الاستماع الى هذه الروائع التى خلفها هؤلاء الموسيقيون العباقرة .

انه يلجأ الى تحطيم اسطواناتهم ، دون أن أقوى على منعه ، فهو كما ترى مفتول الذراعين ، قوى البنية .

وهو لا يقلع ليلا أو نهارا عن عزف موسيقى الجاز على البيانو . وهو لا يدعنى أفكر ، ولا يدعنى أعمل أي عمل . انه لايتوانى عن قتلى . وما الذى فى قدرتى أن أصنعه يادكتور ؟ »

وفى سكون ، أشعل « وليم » سيجارا كبيرا آخر وراح ينفث دخانه وهو يقول :

« اسكت يا «جون» ولا تثرثر . أن هذا المخلوق يادكتور ذهب الى رجل يبيع اسطوانات واسمه على ما أظن ، « سترافينسكى » أو شيئا يقرب من ذلك .

واشترى منه اسطوانة كان يريدها ، وقرات على وجهها العبارة التالية :

« غير قابلة للكسر » .

وقد أردت أن أتأكد من صحة ما هو مكتوب ، فكسرتها على راس «جون» أليس كذلك يا «جونى» . فلم تكن تطربنى . ذلك لاننى أنشد فى الموسيقى نبض الحياة ، وروعة الايقاع . أليس كذلك ؟

وهنا أخذ « جون » ينشج وهو يقول فى أسى :

« اننى أهوى رسم الصور الصغيرة الحجم على العاج . ولكن «وليم» لايدعنى أمارس هذه الهواية التى

أحبها . فان رسمت شيئا منهـا قام من فوره باتلاف ما أرسم ... »

فقال « وليم » :

« لأننى لا أتحمل رائحتها » .

وراح « جون » يستكمل شكواه من أخيه بقوله :

« كان اذا رآنى أرسم ، يعمل على هز ذراعى . فان حاولت منعه ، ضربنى . وعندما أهم بعزف شىء من الموسـيقى أو سماع اسطوانة كلاسيكية هادئة ، فانه يزعم ويدعى أنه يريد أن ينام . فى حين أنى اذا شئت أن أنام ، فانه يأخذ فى اثارة الضـجيج فى كل المنزل ، وياويل من يمنعه من ذلك ! »

وأخذ « وليم » يدعونى الى الشراب بقوله :

« دعنا يادكتور نتناول معا شيئا من البراندى ! » ولـكنى أجبته بحزم :

« أن الـكحول يؤدى بك الى تسمم خطير يامستر « وليم » . ولايسعنى الا أن ألح عليك فى ضرورة قضاء ثلاثة أشهر فى المصح الذى أديره » .

فأجاب « وليم » :

« وما الذى يدعونىالىالذهاب للمصح. اننى فىخير حال ، ولن أذهب يادكتور ! »

وأخذ « جون » يصرخ :

« احمله على الذهاب للمصح يادكتور . احمله على ذلك من أجـل السماء ومن أجلى . اذهب الى المصح يا « وليم » وارحمنى ! »

فقال « وليم » فى ابتهاج ونشوة :

« انني بخير . ولعلك أنت يا «جون» الذى يتحتم عليه أن يذهب الى المصح .

أما عنى ، فانى أفضل أن أستمتع بالحياة . وسأبقى بالمنزل مستمتعا بهـذه الحياة . انها قصيرة الاجل ، ولـكنها مليئة بالمرح .. »

والحقيقة التى جـاوزت كل عجب ، أن « وليم » الذى قال عن نفسه انه بخير ، كان فعلا يتمتع بكبـد سليم ، وكليتين قويتين ، وقلب فى احسن حال .

وهو الذى يشرب زجاجتين من البراندى فى كل يوم يمر فى حيـاته . وكان لسانه يبـدو صـافيا كألسنة الاطفال . كما تبدو عينيه براقتين كالنجوم ، فوق مايتمتع به من بنية صلبة كما لو كانت قدت من صخر .

وفى الجانب الآخر ، كان « جون » هو الذى تبـدو عليه جميع أعراض الادمان على المشروبات ، كما يظهر عليه أثر التسمم النيكوتينى ، رغم بعـده عن الخمر والدخان .

هل يمكن أن نصف هـذه الحالة بانها تطبيق لمـا نعرفه من حالات وأعراض « المشاركة فى الشعور ؟ »

***

استمعنا « وليم » وأنا الى همس كان مصـدره « جون » عندما هم بأن يقول فى صوت خفيض :

« لقد كنت على استعداد لتحمل كل شىء . ولـكن حدث فى الاسـبوع المـاضى ، أن شرع « وليم » فى الاستعداد للزواج من مديرة منزلنا . « وليم » يتزوج؟ وممن ؟ من خادمتنا . ان هذا فوق طاقة احتمالى . لن أحتمل ذلك ! »

وهنا قال « وليم » بثبات :

« وما الذى يمنع من ذلك . انها امرأة جميلة . ان « جون » يكرهها دون ما سبب يادكتور . لقد جاوزت سن الشباب ، ولكنها تفهمنى كل الفهم وأشعر بالراحة معها . فانها تشاركنى فيما أشرب ويتفق ذوقى مع ذوقها . وهى مثلى تحب الموسيقى وتطهو لى من الطعام ما أشتهيه وما تدسه فيه من توابل وأفاويه ومشهيات حريفة . أما هذا الصبى « جون » . فان كل ما يستطيع أن يتناوله من الاطعمة ، لايتجاوز اللبن والسمك المسلوق ولعلك تساعدنى يا دكتور على زواجى من « كلارا » .

ولعلك كذلك لا تبخل على بقليل من البراندى ! »

قلت له بحزم :

« لا . لن تشرب شيئا . وأريد أن أعرف للمرة الاخيرة منك : أما زلت مصرا على رأيك فى الامتناع عن الذهاب الى المصح للعلاج ؟ »

«فأجاب « وليم » بثبات :

« مثل ثقتى فى جلوسك هنا أمامى . وكان «جون» خلال حديثنا ينهنه وينشج وهو جالس على الاريكة فى ضعف من لايملك من أمره شيئا .

وأود أن أجتزىء فى القول ، لنصل الى نهاية القصة . لقد انصرف الأخوان « جون ، ووليم » الى حيث كانت سيارتهما المرسيدس الليموزين فى انتظارهما ، وقت الغسق وركباها وانطلق بهما سائقها .

مضت على هذه الزيارة فترة ، علمت بعدها أن «جون» توفى من أثر تليف الكبد ومن التهاب الكلى

والاستسقاء ؟ وما يمكن أن تؤدى اليه كل هـــذه الامراض ، وهو أمر أنتم تدروز جيدا شأنه .

أما « وليم » فقد مات بعده مباشرة ، ودفن معه فى مقبرة القلب المقدس .

أليس الامر عجيبا ؟

اخذ دكتور « المونا » يكتم ضحكة أوشكت أن تفلت منه ، وراح يفرك يديه فى أنتظـار تعليـق من أحـد المستمعين .

انبرى احد المعالجين الروحيين وراح يقول :

« هـذا بلا شـك أمر عجيب غاية العجب . ولـكن تعليله وتحليله لا يخرج عن الآتى :

ثم أخذ يشرح تعليله شرحا ان كانت له بداية فقـد لمسنا أن نهايته غير معلومة .

الا أن دكتور « المونا » قاطعه بقوله :

« ان شرح الموضوع ياعزيزى الدكتور سهل للغاية . ولعلنى نسـيت أن أذكر لـكم أن « جون ، وولبم » توأمان سياميان . وقد ولدا بكبد واحدة . فتسماها . ومن سـوء حظ « جون » أن كان نصيبـه من الـكبد الواحدة المشتركة ، هو الجزء الرفيع الذى يحدد نهاية الـكبد . وهو الذى تليف قبل كبد أخيه « وليم » .

ثم أضاف مبتسما :

« الا يبدو أن الامر كان ـ فى ظاهره ـ أقرب الى مؤامرة مدبرة ، ليقضى سكير مدمن على أخيـه الذى يعاف الخمر ولا يقرب الدخان ؟ ... »

الفيل الأبيض

يعد مارك توين ، واسمه الاصلى « صموئيل لانكهورن كليمنز » ، من أشهر أدباء أمريكا . « ١٨٣٥ – ١٩١٠ »

وقد عرف عنه شدة تعلقه بفلسفة الجمال والصدق والخير . كما أثرعنه براعته الفائقة فى الفكاهة والسخرية حتى بلغ اعجاب الروائى المعاصر الكبير « ارنست هيمنجواى » بمارك توين حدا حمله على التصريح بأن مارك توين قد استطاع أن يصبح دوليا مع احتفاظه بقوميته الامريكية الكاملة .

وهو فى هذا السبيل يقول ان مارك توين استطاع أن يلخص الادب الامريكى كله فى عمل واحد هو كتابته لرواية « هلكيرى فن » .

أما دعابة وفكاهة « مارك توين » فقد سلكته مع أعظم الكتاب الساخرين ، بل لقد فضله بعض النقاد على كبار الكتاب الساخرين أمثال سويفت وشوسر ورابليه وأرسطوفانيس .

وهو فى قصته « سرقة فيل أبيض » تتجلى قدرته البالغة فى مجال الملاحظة الذكية والسخرية اللاذعة

***

روى لى رجل وقور صادفته فى القطار هذه القصة

الغريبة . كان الرجل قد جاوز العقد السابع من عمره وتشيع فى أساريره كل ما ينم عن طيبة واستقامة بالفة ، تراها مع جدية صارمة وصدق تنطق به شفتاه .

قال الرجل الوقور يروى قصته :

— لعلك تعلم الحظوة التى يتمتع بها الفيل الابيض فى سيام وبين شعب هذه الدولة .

وتعلم كذلك أنه مكرس للملوك ، ولا يحق لغيرهم امتلاكه . بل لعله يزيد قدرا عن الملوك ، منذ أن كان يحظى الى جانب التكريم البالغ ، بالعبادة .

وحدث منذ سنوات خمس ماضية ، أن جرت مشاكل على الحدود القائمة بين بريطانيا العظمى وسيام ، ثبت بوضوح أن سيام كانت على حق ، وأن المسئولية تقع على عاتق بريطانيا العظمى التى بادرت الى دفع التعويضات اللازمة ، مع اعلان مندوب بريطانيا عن اعتذاره ، ورجائه فى نسيان الماضى .

اغتبط ملك سيام بهذه النتيجة ، ورغبة منه فى أظهار شكره ، وفى ازالة كل اثر للخلاف الذى كان قائما ، رغب فى أن يبعث بهدية للملكة بريطانيا ، وهو تقليد تحرص المعتقدات الشرقية على اتباعه لاستمالة الخصم ، تكون متكافئة مع عظمة الملكة ، وعظمة الملك .

وهل هناك ما هو أعظم وأثمن من فيل أبيض ؟

ولما كان منصبى فى الادارة البريطانية جديرا بشرف حمل الهدية الى صاحبة الجلالة فقد وقع على الاختيار للقيام بهذه المهمة الملكية ، بوصفى أحد كبار موظفى الادارة فى الهند .

قمت بتجهيز سفينة لي ولحاشيتي وللفيل وخدم الفيل .

وصلنا فى الوقت المعين الى نيويورك ـ فى طريقنا الى لندن ـ وأقمت فى منزل فخم فى مدينة دجرزى .

وكان من المحتم أن نتوقف فترة تتيح للفيل أن يسترد قواه ، قبل القيام بباقى الرحلة الطويلة .

مضت خمسة عشر يوما كانت الامور تسير فيها على ما يرام دون اى منغصات .

وفجأة بدأت مصائبي عندما وقعت سرقة للفيل الابيض ! فقد أوقظت فى منتصف الليل لاسمع النبأ المشئوم . صعقنى النبأ ، وعقد لسانى ولبى القلق والرعب .

ولم يبق لى رجاء فى شيء .

ولكني استطعت أن أستعيد رباطة جأشي واستطعت أن أسترد عقلى الذى توقف عن التفكير من هول الصدمة .

وقد استطعت أن أفكر فى الطريق الوحيد الذى يتعين على أن أسلكه ، وهو أمر يقدم على عمله كل رجل حصيف فى مثل هذا الموقف .

ورغم أن الوقت كان متاخرا ، الا انى سارعت الى نيويورك . وطلبت فور وصولي الى شرطى، أن يرشدنى الى المركز العام لادارة التحرى .

ومن حسن الطالع أنني وصلت فى الوقت المناسب ، وقبل أن يتأهب رئيس الامن ، والمفتش الاشهر «بلانت» الى مغادرة مكتبه .

كان « بلانت » رجلا متوسط القامة ، مقطب الجبين

عندما يسترسل فى تفكير عميق ، يحمله على نقر جبينه باصابعه ، وهـذه كلها ظواهر تجبرك على الاعتقاد بأنك فى حضرة شخصية عديمة المثال .

عنـدما نظرته على هـذه الحالة ، عاودتنى الثقـة واحيا فى نفسى ذاهب الامل .

شرحت له الغـرض من زيارتى . ووجـدته رابط الجأش ، لم يتأثر بما رويته ، ولم يظهر عليه أى أثر للانفعال ، كأنما قد قصدته للتبليغ عن سرقة كلبى .

قدم لى مقعدا وهو يقول لى بهدوء وثبات :
ـ أرجوك أن تسمح لى بالتفكير لحظة . .
قال ذلك ، ولم يلبث أن اعتمد رأسه بيديه .

وكان هنـاك فى جانب من المـكتب الـكبير عدد من المستخدمين ، لم يكن يسمع خلال تلك الفترة سـوى صرير أقلامهم على الاوراق التى انكبوا عليها .

مضى على ذلك سـبع دقائق تقريبـا ، كان المفتش خلالها مستغرقا فى أفـكاره .
وأخيرا رفع رأسه ، ولاحظت من أساريره الجامدة التى ارتسمت على وجهه ، ان دماغه قد أمسك بفكرة وأن عمله قد تبلور عن خطة محكمة .

قال لى بصوت خافت يتميز بوقع خاص :

ان هذه ليست قضية عادية . وعلينا فى كل خطوة نخطوها أن نتحقق من تنفيذها فى سر مطبق ، على الا نخطو الخطوة التالية قبل أن نتأكد من نجاح الاولى .

يجب أولا وأخيرا ، مراعاة منتهى السرية والـكتمان المطبق . كما يجب الا تحدث أحدا بأمر هذه القضية ، خاصة مخبرى الصحف . ودع هذا الامر لى وسوف

لا اطلعهم الا على ما أقتنع بضرورة اطلاعهم عليه .

دق « بلانت » الجرس ، فأقبل أحد المعاونين فقال له :

ــ آلاريك ! قل للمخبرين أن ينتظروا .

وانسحب على أثر هذا الامر ، المعاون آلاريك .

ــ والآن . تعال بنا نضع خطة العمل المنظم . فنحن فى مهمتنا هذه ، لا نقوى على عمل أى شىء الا بموجب خطة ومنهج ، تمت له دراسة مسبقة .

وتناول المفتش ورقة وقلما .

ــ حسنا ! ما اسم الفيل ؟

ــ هلمال جمست جيجيبوى دوليب ابن برهدبور.

ــ وكنيته ؟

ــ دجمبو

ــ ومكان مولده ؟

ــ عاصمة سيام .

ــ هل والداه على قيد الحياة ؟

ــ كلا انهما ميتان .

ــ هل رزقا غيره من الفيلة ؟

ــ كلا لقد كان وحيدهما .

ــ هذا حسن جدا . وفى هذا الكفاية فى هذا الشأن . والآن تفضل بوصف الفيل دون أن تغفل فى وصفك أتفه التفاصيل ، حتى أحيط بكل التفاصيل . وأعنى أتفه التفاصيل فى نظرك . فليس فى مهنتنا تفاصيل تافهة مطلقا . لكل شىء تافه قيمته فىمهمتنا.

وقمت بالوصف الذى كان يدونه أمامه ، حتى اذا فرغت من الوصف ، قال لى :

ـ الآن استمع الى . فاذا اخطأت فى شىء فأرجو تصحيحى فورا .

وراح يقرأ على ما يلى :

الارتفاع ١٩ قدما .

الطول من الرأس حتى منبت الذيل : ٢٦ قدما .

طول الخرطوم : ١٦ قدما .

طول الذيل : ٦ اقدام .

الطول كله بما فى ذلك الخرطوم والذيل ، ٤٨ قدما

طول النابين : ٩ أقدام ونصف .

الاذنان : متناسبتان مع هذه المقاييس .

اثر الخطوة : شبيه بما يتركه برميل تدحرجه على الثلج

لون الفيل : أبيض ناصع .

ثقب فى نهاية كل اذن لوضع مجوهرات الزينة فى اذنيه .

من عادته أن يرمى الماء من خرطومه على كل المشاهدين سواء فى ذلك كل من يعرفهم أو كانوا من الغرباء .

فى رجله اليمنى الخلفية عرج خفيف .

تحت ابطه الايسر ندبة صغيرة سببها دمل قديم .

كان يحمل وقت سرقته هودجا يتسع لخمسة عشر شخصا ، وغطاء من نسيج مذهب فى حجم سجادة عادية .

ووجدت الاوصاف مطابقة لما أمليته . ودق المفتش جرسا حضر على اثره معاونه « آلاريك » الذى قال له وهو يناوله هذه الاوصاف :

ـ اطبعوا على الفور خمسين الف نسخة منها ، وزعوها بواسطة سيارات نقل البريد على جميع

مكاتب الرهونات فى جميع الولايات الامريكية .

وانسحب المعاون .

ـ هـــذه خطوة يلزمنا بعدها الحصول على رسم فوتوغرافى للفيل المسروق .

أعطيتــه الرسم المطلوب . وكان يتفحصــه تفحص الخبير ثم قال :

ـ نكتفى بهذا الرسم ما دمنا لا نستطيع أن نحصل على ما هو خير منه . فانى أرى أن خرطومه داخل فى فمه وهــذا أمر شــاق قد يترتب عليه أخطاء ، اذ ان هــذا الوضع ليس طبيعيا .

ودق الجرس .

ـ « آلاريك » ، اطبعوا خمســين الف نسخة من هـــــذا الرسم غدا فى الساعة الاولى وارسلوها مع الاوصاف بالبريد .

وانسحب المعاون لينفذ أمر المفتش .

والتفت الى المفتش وهو يقول :

ـ ينبغى تخصيص مكافأة طبعا . فما هو المبــلغ الذى تقترحه ؟ ..

ـ أى مبلغ تعتقد أنه ينبغى تخصيصه ؟

ـ للبدء ، أعتقد .. خمسة وعشرين ألف دولار . انها قضية معقدة ، وليست ســـــهلة . فهناك ألف وسيلة للهرب ، وألف مجال لاخفاء السرقة . ولهؤلاء اللصوص أصدقاء وشركاء فى كل مكان .

ـ عظيم ! اذن فأنت تعرفهم ؟

ولــكن أماراته الحذرة ، أخفت فى مهـــارة آراءه وعواطفه ، بحيث لم ألحظ شيئا يشى بأفكاره . ولم

يلبث أن أردف ذلك بالعبارات التالية :

لا تهتم بذلك والأمر لدينا سواء ، عرفتهم أم لم أعرفهم . فنحن عادة نكون على الفور فكرة واضحة عن السارق ، وعن طريقته فى ارتكاب سرقته ، وأهمية الربح الممكن من العملية . هذا مع استبعاد لصوص الاسواق الموسمية . وعليك أن تستعرض كل ذلك جيدا . فليس هذا اللص بمبتدىء .

ولكن كما سبق لى واشرت ، فان الرحلة سوف يتحتم عليه القيام بها بسرعة ، والعمل مع زملائه على اخفاء كل أثر ينم عنهم ، كلما تقدموا . ولذلك ، يبدو لى أن مبالغ الخمسة والعشرين الف دولار ، مبلغ ضئيل ، وان كان يصلح كبداية .

وهكذا اتفقنا على هذا الرقم .

ولم يلبث هذا الرجل الذى لاينسى شيئا مما يمكن أن يستفاد به كدليل من الادلة أن قال لى :

هناك حالات فى تاريخ الشرطة ، تبين منها أن التوصل الى الخيط الموصل لكشف الشىء المسروق الذى اجتهدوا فى اخفائه ، يكمن فى غرابة أطوار الحيوان المخطوف فى تناول طعامه . فهل فى استطاعتك أن تذكر لى ، ماذا كان يأكل الفيل المسروق ، والكمية التى كان يأكلها ؟

ــ ماذا يأكل ؟ حسنا . انه يأكل كل شىء . بدءا بالرجل وختاما بأى كتاب مقدس وما يكون بينهما .

ــ هذا شىء هام . انى أحتاج الى شىء من التفاصيل فالتفاصيل هى الشىء المهم فى مهمتنا .

فمثلا ، كم من الرجال يستطيع أن يلتهمهم فى الوجبة

الواحدة ؟ وهل يتعين ان تكون لحومهم طازجة ؟

ــ ليس هــذا بالامر المهم عنده . فهو فى وجبــة واحدة يستطيع أن يلتهم خمســة رجال .

ــ حسنا . ومن اية جنسية ؟

ــ انه لا يبالى بالجنسية .

ــ حسنا . وبالنسبة للـكتب . كم كتابا يستطيع أن يأكلها فى وجبة واحدة ؟

ــ يمكنه أن يأتى على طبعة كاملة .

ــ هذا امر يستحق بعض الوضوح . ولــكن نوع القطع ، هل يكون من القطع الصغير ، او الجاير ، أو القطع الــكبير ؟ وهل هناك حاجة لان يكون محتويا على صور ؟

ــ انه على ما أعتقد لا يهتم بالصــور . ولو كنت تعرف هــذا الحيوان كما يجب أن يكون العلم به ، لما سألت هذا السؤال . فهو يلتهم كل ما يقدم اليه .

ــ ينبغى لنا أن نقرر شيئا . فان طبعة من كتاب ، مجلد بجلد روسى ، وبأطراف مائلة ومذهبــة ، أعنى نسخة من هذا الـكتاب يبلغ ثمنها مائة دولار .

ــ على هذا الاساس فان خمسمائة نسخة من هذا النوع تبلغ قيمتها خمسين الف دولار .

ــ حسنا . هذا رقم قريب من الصحة . انى أكتب حسننا جدا .

ــ انه يحب الرجال والـكتب المقدسة . وماذا يحب غير ذلك . هات ... أريد غير ذلك من التفاصيل .

ــ انه يترك الـكتب من أجــل القرميــد ، ويترك الاوانى الزجاجية من أجل الاقمشــة . ويترك القطط من

أجل المحار ويترك السكر من أجل الفطائر المحشوة باللحم ويترك البطاطا من أجل النخالة . وليس ثمة ما لا يأكله الا الزبدة الاوروبية .

ـ حسنا . نتكلم عن الكمية الآن . فما هى الكمية التى يأكلها فى كل وجبة ؟

ـ تتراوح بين ربع طن ونصف طن .

ـ وهل يشرب ؟

ـ يشرب كل ما هو سائل . حليب ، ماء ، ويسكى، زيت خروع ، حامض الفينيـــك ... لا فائدة من التفاصيل فاكتب ان شئت أسماء كل السوائل التى تخطر ببالك ... وهو على كل حال يشرب كل شيء فيما عدا القهوة الاوروبية .

ـ حسنا . نحدد الكميات ؟

ـ قل من خمسة الى خمسة عشر برميلا . ويتوقف ذلك على درجة ظمأه التى تختلف أحيانا . أما شهيته بالنسبة للأكل فانها لا تتغير مطلقا .

هـذه معلومات غير عادية ، ونرجو أن تساعدنا على سلوك السبيل الصحيح .

ودق الجرس .

ـ آلاريك . ناد الكابتن بيرنز !

وأقبل بيرنز فشرح له المفتش « بلانت » القضية بتفاصيلها كلها . ثم أعلن بلهجة واضحة حاسـمة ، تلمس فيها اطمئنانه الى نسج خيوط خطته ، وبصورة من اعتاد أن يصدر أوامر :

ـ كابتن نيرنز ، كلف ضبـــاط التحرى وجونز ،

وديفز ، وهالسى ، وبيشس ، وهاكيب أن يكونوا للفيل آتبع من ظله .

ــ أجل ياسيدى .

ــ وكلف ضباط التحرى موزيس ، وديكن، ومورفى، ورودجرز ، وتابر ، وباتيلى أن يكونوا للصوص أتبع من ظلهم .

ــ أجل ياسيدى .

ضع فرقة من ثلاثين رجلا من النخبة الممتازة ، مع فرقة معاونين تتألف من ثلاثين رجلا آخرين ، فى المكان الذى سرق منه الفيل . ثم اصدر أمرك باقامة حراسة ليلا ونهارا ، بألا يقترب أحد من المكان ، باستثناء مخبرى الصحف ، دون اذن خطى منى .

ــ أجل ياسيدى .

ــ ضع فى السكك الحديدية وعلى ظهر السفن البخارية ضباطا من رجال التحرى فى أزياء مدنية ، وكذلك فوق المعديات ، والقوارب ، وعلى كل الطرقات التى تبدأ من مدينة دجرزى ، مزودين بأوامر قبض على كل الاشخاص المشبوهين .

ــ أجل ياسيدى .

ــ اعط كلا منهم رسما مرفقا بأوصاف الفيل ، ولا تنس أن تزودهم بامر تفتيش كل القطارات والبواخر التى تغادر الميناء .

ــ أجل ياسيدى .

ــ واذا تم القبض على الفيل ، فاخطرونى فى الحال برقيا .

ــ أجل ياسيدى .

ـ وأخطروني كذلك اذا وجدتم آثار أقدام هذا الحيوان أو أى شيء مماثل .
ـ أجل ياسيدي .
ـ أصدر الامر الى شرطة المرفأ لتقوم بدوريات يقظة ، أمام واجهات المنازل ، وبكل انتباه .
ـ أجل ياسيدي .
ـ ابعث ببعض ضباط التحري بملابس مدنية على قطارات الى كندا شمالا ، واوهايو غربا ، وبوسطون جنوبا .
ـ أجل ياسيدي .
ـ وضع رجالا موثوقا بقدرتهم فى كل مكاتب البرق لقراءة كل البرقيات ،بما فى ذلك البرقيات الرمزية مع تزويدهم برخصة لحل تلك الرموز .
ـ أجل ياسيدي .
ـ كل هذه الاوامر ، يجب أن تحاط بالسرية التامة
ـ أجل ياسيدي .
ـ لا تنس أن تقدم لى تقريرك فى الوقت المعتاد .
ـ أجل ياسيدي .
ـ اذهب الآن .
ـ أجل ياسيدي .

إنسحب الكابتن ، وبقى المفتش بلانت فى صمت وفكر عميق وقد التمعت عيناه . ثم لم يلبث أن التفت الى وهو يقول بصوت هادىء :

ـ ليس من عادتى أن أكون مغرورا ، ولكن فى استطاعتى التأكد من أننا سوف نجد الفيل .

ولم يسعنى الا أن أقوم وأصافحه بحرارة شاكرا له

جهوده المخلصة . وكنت صادقا فى عرفانى بجهوده كما كنت أزداد به ثقة ، وأدهش من غرائب مهنتـــــه وعجائبها . وكان الوقت متأخرا ، فافترقنا وعدت الى دارى وقلبى أكثر غبطة مما كان ساعة وصولى الى مكتب المفتش .

***

فى صـــــباح اليوم التالى ، نشرت جميع الصحف الصادرة ، كل التفاصيل بكاملها .

وكان هناك الى جانب التفاصـــيل ، شرح لنظريات التحرى التى تتبع هذه المدرســة أو تلك ، لتحليــل الطريقة التى تمت بها السرقة والتكهن بماهية اللصوص والجهة التى يمكن أن يكونوا قد لجأوا اليهــا واتجهوا اليها بغنيمتهم . وكانت النظريات المطروحة للبحث تبلغ احدى عشرة نظرية تبحث الامر من كافة نواحيه .

ولم تكن هناك نظريتان متماثلتان وأن كانوا اجتمعوا على أمر واحد هو أنه على الرغم من ســلامة مؤخرة منزلى وبقاء الباب مقفلا ، لم يستطع الفيل المرور من الفتحة المستحدثة بل خرج من مكان آخر ، ما يزال مجهولا . وقد عمـد اللصوص الى احداث هذه الثلمة اغراقا فى التضليل لرجال التحرى . وقد لا يخطر على بالى أو بال أى انسان ، هذا التضليل الذى اكتشفه بســـهولة رجال التحرى ، ولم ينخدعوا بما قام به اللصوص من محاولة للتعمية .

عندما نشرت الصحف تفاصيل النظريات الاحـدى عشرة ، ذكرت معها جميع أسماء اللصوص المشبوهين، دون اجماع على هذه الاسماء .

وكان مجموع عدد الاشخاص المشبوهين سبعة وثلاثين ، كما أشارت الصحف الى رأى المفتش بلانت. وهو أهم الآراء . وفيما يلي خلاصة ما نشر :

« ان المفتش العام يعرف اللصين الرئيسيين. وهما « بريك دانى » و « روج ماك فادن » .

وقبل عشرة أيام من ارتكاب السرقة ، كان المفتش العام قد رأى من باب المحافظة على الامن ، ودون اثارة اى ضجة ، حبس هذين اللصين حبسا تحفظيا لخطرهما على الامن العام .

ولكن لسوء الطالع ، تمكن اللصان من الهرب ليلة وقوع السرقة . وقبل أن يعثر عليهما ، كان العصفور ، أى الفيل ، قد طار » .

« ودانى ، وماك فادن » يعدان من اجرأ وأخطر اللصوص والمفتش العام يعتقد انهما هما اللصان اللذان سرقا فى الشتاء الماضى ، فى ليلة من ليالى البرد القارص ، مدفأة قسم الشرطة ، الامر الذى تخلف عنه اصابات شديدة بالبرد لجميع رجال الشرطة ، الذين تجمدت أطراف بعضهم ، وتوقفت عن الحركة أجزاء منهم ، فلجأوا الى الطبيب المعالج فى فجر ذلك اليوم».

بعد أن قرأت نصف هذا المقطع ، ازداد اعجابى بقدرة وحكمة ودهاء هذا المفتش الفذ .

انه لايرى بوضوح وجلاء كل التفاصيل الحالية ، بل كان يجاوز ذلك الى المستقبل فيرى تفاصيل على ضوئه .

وما دام له مثل هذا القدر من الاحاطة والمقدرة ، فما الذى يمنعه من أن يضع يده على اللصين ويأمر

بالقبض عليهما بهذه التهمة .

ولهذا ، لم يسعني الا أن أبدى له دهشتى لعدم اقدامه على القبض على اللصين وتقديمهما للمحاكمة ، والحيلولة بذلك دون وقوع السرقة وتكبد كل هذه الخسائر . ولكنه أجابنى ببساطة :

ــ ليس من شأننا أن نحول دون وقوع الجريمة . ولكننا نعاقب مرتكبيها . وليس من حقنا معاقبة المجرمين قبل ارتكاب جريمتهم .

واسترسلت فى ابداء ملاحظاتى ، بقولى أن السرية التى اتفقنا على مراعاتها تسربت الى الصحف .

وقد تسربت للصحف تفاصيل وافية عن الموضوع ومرتكبيه وما وضعناه من خطط ومشاريع ، بل لقد

ذكرت الصحف أسماء كل المشبوهين ، بحيث أصبح من السهل عليهم ، اما الاختفاء أو التنكر .

ــ دعهم يفعلون ما يشاءون . وسوف يتبين لهم فى الوقت المناسب ، اننى عندما أصبح على استعداد ، فسوف أنقض عليهم فى مخابئهم كأننى كف القدر .

اما فيما يتعلق بالصحف ، فمن واجبنا أن نماشيها وتجاريها فيما تنشر . ذلك أن الشهرة والصيت واثارة الرأى العام بصورة مستمرة ، هى كلها ، الخبز اليومى لرجل الابحاث والتحرى .

وعلى الشرطى أن يكشف عما يعمل ، حتى لا يتهم بانه لا يعمل شيئا .

وعليه أن يصرح بنظرياته ، اذ أن ذلك أجلب خيرا عليه من تقدير واعجاب الرأى العام .

ولا يجوز لنا أن نرفض للصحف طلبا ، فعلينا أن

نقوم بذلك بكل كياسة حتى لا نسوء اليها .

وكلما اطلع الرأى العام على مثل هذه الانباء والخطط تأكد لديه اننا نعمل ونتحرك .

والصحف لا تبخل علينا بقولها على سبيل المثال :

« وهـذه هي نظرية المفتش بلانت المتقنة المحكمة » بدلا من أن تنطلق فى اللذع والتهكم والسخرية . لم يسعنى بعد رؤيتى وسماعى لكل هـذه الخطط والتحركات ، الا أن أضع بين يدى المفتش ، مبلغا ضخما من المال ، لتغطية النفقات الضرورية .

جلست الي جانب المفتش فى انتظار ورود أى خبر أو نبأ برقيا أو بالبريد .

وكنا نعلق أهمية قصوى على ورود برقية بين دقيقة وأخرى . ورحت أقرأ الصحف التى نشرت خبر النفقات . وقد تبين لى أن المكافأة وهى مبلغ الخمسة والعشرين الف دولار ، ستذهب الى رجال التحرى ، فى حين أنه من الاصوب ، الاعلان عن منح المكافأة لاى شخص يعثر على الفيل .

وقد أجابنى المفتش بقوله :

ـ رجال التحرى هم الذين سيعثرون على الفيل . وعلى ذلك فستذهب اليهم المكافأة ، والجائزة هى دائما من نصيب من يستحقها . واذا اتفق أن عثر أى انسان آخر على الفيل ، فانه سوف يتسنى له ذلك ، بعد أن يكون قد تجسس على رجال التحرى ، واستفاد من الادلة التى فشلوا فى اخفائها ، وبهذا يطالبون بغير استحقاق ، بالمكافأة .

فى حين أن تخصيص جائزة مماثلة ، يثير حماسة

الرجال الذين تخصصوا فى هذا الشأن واكتسبوا خبرة ومرانا ، لا ضرفها لمن يعثر بطريق الصدفه على الفيل المسروق ، دون بذل مهارات وجهود وخبرات خاصه.

بدا لى أن ما يقوله المفتش منطقيا الى حد ما . وفى تلك اللحظة ، بدأ جهاز اللاسلكى القائم فى أحد أركان المكتب يدق دقاته المعهودة ، وجاءت البرقية التالية:

« فلاور ستيشن ، نيويورك ، الساعة ٧٫٤٠ صباحا»
انى أتتبع أثرا . فقد وجدت حفرا عميقة عبر مزرعة قريبة من هنا ، فاقتفيتها مسافة ميلين شرقا ، دون فائدة . أعتقد أن الفيل اتجه غربا . سأتجه نحو الغرب .

« دارلى »

قال المفتش :

ـ ان دارلى من أفضل رجال هذا القسم . وسوف تصلنا منه قريبا أنباء أخرى .

ووصلت البرقية رقم ٢ :

« باركز. نيوجرزى . الساعة ٧٫٣٠ صباحا » .

« وصلت اللحظة ، تحطيم فى مصنع زجاج هنا الليلة الماضية ، واختفاء ثمانمائة زجاجة . لا توجد مياه بكميات وافية الا على بعد خمسة أميال من هنا. وجدت الزجاجات فارغة ويمكن أن يكون الفيل قد عطش وشربها . انى أتجه فى هذا الاتجاه » .

« ديكر »

ـ يبدو أن هناك شعاعا من الامل . ألم أقل لك ان معرفة نظام طعام هذا الحيوان ، تساعدنا على آثاره واتجاهاته !..

البرقية رقم ٣ :

« تايلورفيل ، لونج ايلاند ، الساعة ٨ر١٥ » .

اختفت كومة هشيم على مقربة من هذا المكان ، فى الليلة الماضية . الارجح ان الفيل التهمها . اكتشفت الآثار وتبعتها » .

« هابرد »

وهنا قال المفتش :

ترى أى طريق سيسلك ! على اى حال ، سوف تلاقى مشقة ، ولكننا سنعثر عليه .

« فلاور ستيشن ، نيويورك ، الساعة ٩ صباحا» .

اكتشفت الآثار على بعد ثلاثة أميال غربا . آثار عريضة ، عميقة ، مخططة . استجوبت مزارعا نفى أنها آثار فيل وانما حفر وضع فيها أغراس شجر عندما سقط الثلج فى الشتاء الماضى . أبرق لى بتعليماتك ، وأى طريق أسلك »

« دارلى »

فقال المفتش :

آه . هذا المزارع شريك للصوص ! ان أعصابى تحترق . وأبرق الى دارلى :

« اقبض على المزارع واحمله على الافشاء بأسماء شركائه واصل متابعتك للآثار ، حتى لو اقتضى الامر الذهاب الى الباسفيك » .

« بلانت ــ رئيس التحرى »

برقية أخرى :

« كونى بوينت ، بنسلفانيا ، الساعة ٨ر٤٥ صباحا »

« تحطيم فى معمل الغاز أثناء الليل . اختفاء

ايصالات مشتركين غير مدفوعة . أكتشـــــفنا الآثار ونتابعها » .

صرخ المفتش :

ـ يا للسماء ! حتى الايصالات يأكلها ؟

فأجبت :

ـ بطريق الخطأ ولاشك . لانها لا تستطيع أن تؤمن للفيل وجبة ، خاصة اذا كانت وحدها .

ثم وصلت البرقية المثيرة التالية :

« ايردنفيل ، نيويورك ، الساعة ٩٫٣٠ صباحا » .

« وصلت لتوى . أهل القرية فى دهشة بالغة . مر الفيل من هنا فى الخامسة صباحا . البعض يقول انه يتجه غربا ، وآخرون يقولون انه يتجه شمالا ، وطائفة تقول بل اتجه نحو الجنوب . ولم يثبت أحد منهم على قرار واضح. قتل جوادا . احتفظت بقطعة منه كدليل. قتله الفيل بخرطومه . وكانت الضربة موجهة من ناحية اليسار . وحسب وضع الجواد القتيل ، أعتقـد ان الفيل يتجه شمالا بمحاذاة خط سكة حديد بركلى. انه يسبقنا بأربع ساعات ونصف . ولـكننا نتعقبه » .

« هارفز »

صدرت عنى صيحة فرح . فى حين بقى المفتش العام ساكتا كصنم . ودق الجرس بحزم .

ـ آلاريك . ادع لى الـكابتن بيرنز .

وأقبل بيرنز .

ـ كم عدد الرجال المستعدين لديك ؟

ـ ستة وتسعون ياسيدى .

ـ ابعث بهم الى الشمال فورا . وليكن تجمعهم على

خط سكة بيركلى ، شمال ايروتفيل ،
ـ سمعا ياسيدى .
ـ لتبق كل هذه الحركات طى الكتمان البالغ . وعندما يتجمع لديك عدد آخر يمكن الاستغناء عنهم ، اخطرنى .
ـ سمعا ياسيدى .
وفى هذه اللحظة وصلت برقية أخرى :
« سيج كورنرز . نيويورك . الساعة ٣٠ر١٠ صباحا »
« وصلت الآن . مر الفيل من هنا الساعة ١٠ر٨ صباحا . هرب جميع سكان المدينة ما عدا رجال الشرطة ، يبدو أن الفيل لم يهاجم الشرطى. بل هاجم عمود النور. فتحطم العمود وقتل الشرطى . احتفظت بقطعة من الشرطى كدليل .
« ستام »
فقال المفتش العام :
« اذن لقد تحول الفيل غربا . على أى حال لن يتاح له الفرار . فرجالى منتشرون فى كل مكان » .
وهذا مضمون برقية تالية :
« جلوفورز ، الساعة ١٥ر١١ صباحا » .
وصلت الآن . القرية مهجورة ، ولم يبق بها الا المرضى والعجائز . مر الفيل من هنا منذ ثلاثة أرباع الساعة . وكانت جمعية الاحتجاج على ترك الماء غير الصالح للشرب دون سياج ، تعقد جلستها فى الجمعية، عندما أدخل الفيل خرطومه من النافذة وأفرغه فى الفرفة ، وكان قد ملأه ماء من احدى الآبار فتجرعه غصبا بعض الاعضاء الذين توفوا فى الحال .

وبعد انقضاء خمسة عشر يوما منذ يوم السرقة ، رفعت المكافأة الى خمسة وسبعين ألف دولار نزولا على نصيحة المفتش بلانت . ورغم فداحة المبلغ ، الا انى كنت أفضل أن أضحى بكل ثروتى عن أن أفقد ثقة حكومتى فى شخصى .

وقد زاد من ورطة رجال التحرى ، ان الصحف راحت تنقلب عليهم وتشن عليهم نقدا لاذعا .

ورأى رجال المسرح فى هذا الحادث فرصة ذهبية لاستغلاله . وكان المشاهد يرى على المسرح ، رجال التحرى وهم متنكرون ويطاردون الفيل بأساليب ماجنة ساخرة تبعث على الهزء بهم . وراحت الصحف ترسم الصور الكاريكاتيرية لرجال التحرى وهم يجوبون البلاد وقد حملوا مناظيرهم ، فى حين كان الفيل يسير وراءهم ويلتهم بخرطومه ما فى جيوبهم من تفاح .

وسرت شرارة الدعابة والسخرية من رجال التحرى الى كل مكان ، من المسرح الى البار ، الى الطريق العام ، الي الهزء من شارة التحرى التى قوامها عين مفتوحة وقد كتب تحتها :

« نحن لا ننام » .

ولكن رجلا واحدا ظل رابط الجأش ، لا يعير هذا الذى يجرى حوله أى اهتمام .. انه المفتش العام بلانت . فلم يتزعزع عن أمله ولا عن ثقته فى أية لحظة مرت به . كان يقول :

دعهم يقولون ما يروق لهم . ويفعلون ما يشاءون . والذي يضحك أخيرا هو الذى يضحك كثيرا .

ولقد بلغ اعجابى بهذا الرجل حدا حملنى على ألا أفارقه . فكنت أذهب الى مكتبه كأنى أذهب الى مكتبى .

وكانت بطولته تبعث فى نفسى من فرط اعجابى به ، الرغبة فى أن أقلده فى بطولته . فلا أتململ ولا أسأم .

وعندما يتسرب الى شىء من اليأس ، انظر الى وجه هذا الرجل الساكن الغافل وأبقى فى مكانى ساكنا متجلدا .

وبعد مرور ثلاثة أسابيع على وجه التقريب من سرقة الفيل ، وجدت نفسى على وشك أن أفكر فى تقديم استقالتى من منصبى وأنسحب من هذا الاسى .

وكأنما كان رجل التحرى العظيم المفتش بلانت يقرأ أفكارى ، اذ سرعان ما قدم لى خطة جهنمية جديدة

لقد كان يجرى صفقة مع لصوص . ان عبقرية هذا المفتش وقدرته وعقله ، تفوق كل من احتككت بهم وهم من أبرز الادمغة بحكم وظيفتى .

قال لى ، انه على أتم ثقة من أن باستطاعته أن يعقد صلحا مع اللصوص على مبلغ مائة ألف دولار يأخذونها ويعيدون لى الفيل .

أجبته بقولى : أن فى استطاعتى جمع هذا المبلغ ، ولكن كان اعتراضى على ما يحل برجال التحرى الذين ضحوا وبذلوا أقصى جهدهم دون أن ينالهم شىء .

فأكد لى المفتش انه فى مثل هذه الصفقات التى يجريها مع اللصوص ، يكون النصف دائما من نصيب رجال التحرى .

وبمثل هذه الحصافة استطاع أن يقضى على اعتراضى وتناول المفتش بطاقتين كتب عليهما النص التالى :

« سيدتى العزيزة .
أن زوجك يستطيع أن يكسب مبلغا ضخما من المال.
« واعتمدي دائما على حماية القانون » .
أرجو مقابلتى على الفور .
« بلانت ـ المفتش العام » .

وأمر بارسال احدى البطاقتين الى زوجة « بريك دافى » ، والاخرى الى زوجة « روج ماك فادن » .

وبعد ساعة وصل الردان الوقحان التاليان :

« أيها الغراب العجوز ، لقد توفى « ماك دافى » منذ سنتين » .

« بريدجيت أوهولجان »

وكانت البطاقة الاخرى :

« أيها الخفاش العجوز الاعمى . لقد شنق « ماك فادن » منذ ثمانية عشر شهرا . ان حميرا كثيرة علمت ذلك من قبلك » .

« مارى ماهوتى »

قال المفتش

ـ لم أكن لأشك فى ذلك منذ زمن بعيد . وها هى الشهادة بحذقى تكمن فى هذه الرسالة ... وكنت أدعى عدم العلم ...

وكان اذا أعوزته الحيلة ، أخرج من جعبته حيلة أخرى جاهزة . وعلى الاثر بعث الى صحف الصباح باعلان ، لا يستطيع العلم بما فيه الا اللص المقصود وأردف قائلا :

أن ذلك سيحمل اللص ، اذا ما كان بعد على قيد الحياة ، على المجىء الى المكان المتفق عليه فى الاعلان

للقاء . وهـذا المـكان تجرى فيه كافة المصالحات بين رجال التحرى والمجرمين .
وكان منتصف الليـل هو الوقت المحدد . ولم يكن أمامنا من شيء نعمله ، فغادرت المـكتب لانعم بشيء من الراحة ولاستحضر ما طلبه منذ برهة .

عدت اليه في الساعة الحادية عشرة ليلا ، أحمل اليه المائة الف دولار ، أوراقا نقدية ، ووضعتها بين يدى المفتش العام .
بعد قليل تركني وفي عينيه بريق الامل والثقة .

وانقضت ساعة وأنا على أحر من الجمر . ثم سمعت وقع خطاه الواثقة .
فنهضت مذهولا مترنحا من الغبطة ، وتقدمت منه على ضوء شرر الانتصار الذى كان يشع من عينيه ، قال:

ـ لقد تمت الصفقة . وسترى غدا كيف تتغير لهجة الهازئين . اتبعني .
وحمل شمعته وهبط الى البـدروم الفسـيح الذى يمتـد تحت مبنى دار الامن . وكان ينـام في هــذا البدروم ، ستون شرطيا من شرطة التحرى ، في حين يلعب الورق ، قتـلا للوقت ، عشرون آخرون . وفي اللحظة التي كدت أختنق فيها وأفقد توازني وأنا أسير على أطراف أصـــابع قدمى ، رأيت المفتش يتعثر ويستلقي فوق الجسم الضخم الـذى كان ممددا على الارض ، وكان يصرخ وهو يسقط قائلا :

ـ أن مهنتنا النبيلة قد أخذت حقها بيدها وثارت لنفسها . هاكم هو الفيل
حملوني الى المـكتب ، حيث استعدت رشدي بعد شم الاثير .

وهرع جميع شرطة التحرى وتنادوا على الالتقاء فى السرداب حيث شاهدت مشهدا لم تقع عليه عينى بين مشاهد الانتصارات التى رأيتها فى حياتى .

واسرع مخبرو الصحف تلبية لدعوة مركز الامن العام ، ودارت كئوس الشمبانيا وتبودلت الانخاب والتهانى ، وتصافح الجميع فى حماس منقطع النظير .

كان المفتش العام هو بطل الساعة . وكان فى أقصى درجات السعادة . فقد انتصر بصبر وشجاعة واحتمال انتصارا كاملا مبينا ، فى الوقت الذى أصبحت أنا فيه شريدا طريدا من وظيفتى ، وفقيرا مفلسا بعد أن نفدت ثروتى فى المكافآت والمصروفات ، وها هو الكنز الذى كنت أعتمد عليه والذى ائتمنت عليه قد تلاشى

وفقدت وظيفتى نتيجة ما كان يسمى فى عرف الوظائف ، بالاهمال الجسيم .

ودارت الخطب التى تعرب عن عبقرية المفتش العام وصدق نظراته ونظرياته . وكنت تسمع هذه العبارات :

ـ انظروا اليه ، انه بلا شك امام هذه المهنة وزعيمها ، وهو اذا عثر على مجرد دليل واحد ، فان الامر كله يصبح أمامه جليا لا خفاء فيه .

وكان لاقتسام الخمسين الف دولار وقع عظيم . فلما تمت القسمة ، وقف الرئيس ، بعد أن دس فى جيبه نصيبه لالقاء خطاب وجيز ، لم يزد عن قوله :

« استمتعوا يا ابنائى ، لانكم تستحقون مانلتموه . وقد اكسبتم باعمالكم ، مهنة التحرى صيتا ذائعا لا يبلي علي الايام ! »

فى هذه اللحظة وصلت برقية :

« مونرو ، تشيجان ، الساعة ١٠ مساء » .

« وجدت أخيرا مكتبا للبرق لاول مرة ، منذ ثلاثة أسابيع مضت فى البحث عنه . تعقبت آثار خطوات على ظهر جواد كنت أمتطيه وسط الغابات على مسافة تبلغ الف ميل . الآثار تزداد عمقا ، واتساعا . وهى تتجدد يوما بعد يوم . انتظروا بلا فزع فسوف لايمر أسبوع واحد حتى يصبح الفيل بين يدى . انى على اتم ثقة من ذلك » .

« دارلى »

أمر المفتش العام بالهتاف عاليا « لدارلى » الذى كان فى مقدمة رجال الامن المهرة ومن أنبغهم . ثم أبرق يستدعيه ليتسلم نصيبه من المكافأة .

وبهذا نزل الستار عن مأساة سرقة الفيل الابيض .

وصدرت الصحف فى اليوم التالى وقد امتلأت صفحاتها بالمديح والثناء على المفتش العام ورجاله المهرة، فيما عدا استثناء واحد كان تافها . فقد راحت الصحيفة الساخرة تقول :

« رجل التحرى عظيم ! يمكن أن يتصف بالبطء فى العثور على أشياء صغيرة كالفيل الضائع ... يمكن أن يطارده طوال النهار ، ثم ينام الليل بطوله الى جوار الهيكل العظمى الفاسد النتن طوال ثلاثة أسابيع من البحث ، ولكنه ينتهى الى العثور عليه ، اذا أمكنه أن يضع يده على يد من يدله على المكان المناسب للبحث والتحرى ! »

أما بالنسبة لى فان الفيل « هلمالى جمست » ،كان

فى عداد المفقودين منذ أن سرق . وعندما أصابته طلقات مدفع فى مقتل، لجأ الى سرداب ادارة الامن وسط الضباب المنتشر الكثيف . وهناك ، ووسط أعدائه ، وازاء خطر اكتشافه بين لحظة وأخرى ، رقد دون حراك حتى قضى عليه الجوع فمات ، ومنحه هذا الموت الراحة الابدية .

هذه العملية، كلفتنى مائة الف دولار ، الى جانب اثنين واربعين الفا اخرى ، مصروفات نثرية .

ولم يكن فى وسعى التفكير فى الحصول على منصب آخر من حكومتى فقد غدوت رجلا مهدما ، أهيم على وجهى فى هذه الدنيا . على أن كل هذا الذى جرى لى ، لم يؤثر أو يقلل من اعجابى الشديد بالمفتش العام « بلانت » الذى أعتقد انه أشهر شرطى تولى أعمال التحرى ، بمهارة منقطعة النظير .

انطون تشيكوف

(١٨٦٠ - ١٩٠٤)

كان « انطون بافلوفتش تشيكوف » من أكثر الكتاب الذين آثرهم وأحبهم وصادقهم ، عملاق القصة الطويلة « تولستوى » .

وكان يقول ، انه اذا كان « بوشكين » هو امام الشعر فى روسيا ، فان « تشيكوف » هو امام النثر فيها .

ورغم فارق النشأة واختلاف المذهب ، فقد جمعتهما صداقة وثيقة . ذلك أن « تولستوى » كان متصوفا ، وخياليا ، فى حين كان « تشيكوف » ، عمليا وواقعيا .

ورغم دراسته للطب ، فانه لم يزاول مهنة الطب ، وآثر عليها الاتجاه للأدب والقصة .

ولم يقتصر « تشيكوف » على كتابة القصص القصيرة - التى بلغت الالف - بل لقد أثرى الادب الروسى بروايات طويلة ، كما أثرى المسرح الروسى بكثير من مسرحيات ناجحة .

وكانت أشخاص رواياته فى القصص القصيرة ، أو فى المسرح ، من البسطاء ، يظهرون ويتحركون مجردين من كل زينة أو جماليات فى الحديث أو الحركة .

وكان ينظر الى النـــــاس بعيونه هو ، لا بعيون « تولستوى » أو « تورجنيف » أو « دوستويفسكي » وهم الذين أولعوا بالابطال وبخلق دور البـــــطولة لاشخاص قصصهم .

أما «تشيكوف» فقد جرد قصصه من أدوار البطولة والابطال . فالناس عنده قوالب ذات أمزجة متباينــة ولــكل قالب من هذه القوالب صفاته وتصرفاته .

وانك لتلمس فى قصصـــه مرارة التجربة ، وانفــة الاستقامة ، ونبض الحقيقة ، وثمرة المعــاناة ، التى اقتطفها من واقع الحياة ومن تناغمه معها حينــا ، أو الثورة عليها أحيانا .

كان ينصح الـكتاب الناشئين ، بالنظر بعيونهم للناس ولمــا حولهم ، لا بعيون من ســـــبقهم من الـكتاب . والتحدث الى أناس مجتمعهم بلغتهم ، لا بما يتخيلون من أحاديث ومجادلات ليســت من الواقع الملموس ، بقدر ما هى من الذاكرة أو السماع ، أو الذهاب مذهب السابقين .

وكانت الرحــلات عنــده ، هى قوام وذخيرة كاتب القصة . كما كان يرى أن الاحتكاك بالناس ، والتحدث اليهم هو أساس بناء القصة .

وقد حصل على جائزة « بوشكين » عام ١٨٨٧ .

وفى عام ١٩٠٢ ، انتـــــخب هو و « جوركى » و « كورولينو » أعضاء فى الاكاديمية الروسية .

الا أن القيصر نيقولا الثـــانى اعترض على انتخاب « جوركى » وحرمه من العضوية .

فما كان من « تشيكوف » الا أن رفض على الفور

عضوية الاكاديمية ، احتجاجا على حرمان « جورگی » من عضوبة الاكاديمية ، واعلانا عن سخطه لهذا التصرف المشين من القيصر .

ولم يكن « تشيكوف » يعترف فى عالم القصص ، الا بالقصة التى تترك طابعا وبصمة وأثرا فى نفسه .

وعندما سـألوه عما اذا كان قد قرأ « الجريمة والعقاب » ، « لدوستويفسكى » ، أجاب بأنه يؤجل قراءتها الى أن يبلغ الاربعين من عمره .

وعند بلوغه سن الاربعين ، سألوه عما اذا كان قرأ القصة كما وعد ، أجاب بقوله :

نعم لقد فعلت . ولـكنها لم تترك فى نفسى أثرا كبيرا

وسام «أنّا»

في صبـاح باكر من أصباح الصيف العابقة بأنسام عطر الزهر الفواح ، كانت عربة أنيقة ، تجرها جيـاد مطهمة ، تنم عن ثراء صـاحبهـا ، تخطر في الطرقات الخالية من المـارة ، وقد استقلتها باقة من آنسـات رشيقات ، كن يتضاحكن مع « دون جوان » عصره ، « ارتينوف » صاحب العربة ، الذي كان يجلس الى جوار السائق ، الامر الذي كان مثار ضحك الغانيات ، واسترسالهن في مجونهن ، مع هـذا الثري العربيـد المستهتر ، السادر في سهراته الماجنة ، الطليقة من كل قيد أو احتشام .

وكانت الفتـاة « أنا » في تلك اللحظة ، تعبر الطريق الى السوق ، في بعض شأن بيتها ، وقد شغلتها هموم العوز والحاجة ، عن الانتباه الى مرور العربة ، التي كانت تنطلق بما حملت من فتنة وثراء ، في طريق العودة من « بال » ساهر .

استرعى جمالهـا نظر « ارتينوف » الخبير بمكامن الفتنة . ولم يستطع أن يكتم اعجابه الذي أحاطه بأرق ألفاظ الغزل ، والفتـاة عن كل ماحولها لاهية ، الا بما

اتصل بهموم بيتها وأسرتها ، التى تتألف من أبيها واخويها الصغيرين ، وهى الاسرة التى حملت « آنا » وحدها بعد موت والدتها عبء اعالتها ، منذ أن أصبح والدها ، « بيوترليونيفتش » عاطلا وسكيرا مدمنا لايفيق .

ولقد شاء سوء حظ هذه الاسرة ، أن يفقد عائلها وظيفته كمدرس للرسم بمدرسة ثانوية ، رأت ادارتها فصله ، نتيجة تقصيره واهماله وادمانه وغيابه المتكرر .

عرف الفقر سبيله الى بيت الرجل الذى راح يستدين حتى استغرقته الديون .

وكان على ابنته « آنا » أن تسهر بكدها على هذا الوالد وعلى أخويها الناشئين ، وهى لم تزل طرية العود ، لم تتجاوز الثمانية عشر ربيعا .

وكان الصبيان ينظران الى والدهما وهو يمد يده المرتعشة الى اناء النبيذ ، نظرة توسل واستعطاف ، لعله يقلع عن هذا الشراب الذى يقيم ثمنه أود هذه العائلة البائسة ، فى كل مرة يشرب فيها ابوهم هذا الشراب .

كان الاب لايطيق أن يمنعه أحد منا يصنع ، بالقول أو بالاشارة ، ويصرخ مهددا كل من يمنعه من الشراب ، بالطرد من البيت .

وكان هذا المشهد الاليم ينتهى كل يوم كسابقه ، باتجاه الاب الى آلة « أورغون » يعزف عليها ، فلعلها تمسح بأنغامها بعض ما يعانيه من شجن لا قدرة له على دفعه ..!

وحدث ذات يوم ، عند غودة « أنا » من عملهما الشاق ، الذى يسد أجره بعض مطالب الحياة ، أن شاهدت الموظف المكلف بمعاينة منقولات الدار وحضرها فى قائمة يحملها ، تمهيدا لبيعها ، وتنفيذا لحكم المحكمة الصادر بحجز وبيع منقولات الدار ، سدادا لديون الدائنين .

انقبض صدر « أنا » من هذا الذى شاهدته ، وأحست ان الحياة التى لا ترى منها الا وجهها المتجهم أصبحت عبئا وهما لا يطاق .

ولقد دفعتها الشفقة بأبيها وأخويها ، للاذعان لنصائح جاراتها ، اللواتى كن يزين لها التأهل بزوج ثرى ، يليق بما هى عليه من فتنة ونضارة .

ولا عليها من فارق السن ، فان المال والجاه ،كفيلان بأن يحيطانها باعجاب مجتمع عصرها ، ويجذبان اليها الشبان وأهل الجاه والسلطان .

ومضين يبحثن عن الزوج الصالح لكل هذه الفتنة، حتى وجدنه فى شخص «موديست اليكسيفتش» الثرى الرفيع المقام ، وان كان قد جاوز الشباب منذ عهد بعيد ، وراح ينشد الاسرة والجمال ، والمزيد من الجاه

كانت همسات المدعوين الى حفل زواجها ، التى تضمنت الرثاء لهذا الجمال النادر ، الذى يزف الى رجل فى مثل عمر أبيها ، فوق مظهر منفر تعافه النفس، تثير همومها عندما كانت بين أترابها ولداتها فى الكنيسة خلال مراسم الزواج .

واستكمالا من زوجها « موديست » لما تقضى به المراسم الدينية ، وتقديسا منه للجانب الروحى للزواج،

الذى كان يعنيه كثيرا فلا يفرط فيه ، رحل الزوجان الى دير يقع على مبعدة من المدينة .

وفى طريق رحلتهم الى الدير ، اعترض «ارتينوف» الثرى المستهتر ، طريق « أنا » للمرة الثانية منذ رؤيته لها فى ذلك الصباح الباكر ، الذى طبع صورتها فى ذاكرته ، ولم تبرحها من ذلك الحين .

وكان قد داب هو ورفقة من صحابه من اهل المجون ، على أن يعترض ، على سبيل التسلية والمداعبة البريئة ، عربات المسافرين على الطريق العام ، وحجزهم ، برضاهم ، عن مواصلة رحلتهم ، واستضافتهم فى مخيم أنيق بعض الوقت ، يقطعونه فى قصف ورقص وغناء وشراب ، بعد تعارف فى هذا الجو المرح الطروب ، ثم يخلون سبيلهم . وعندما تخلو أيديهم من صيد على الطريق ، حيث يكون المساء قد أقبل ، يجمعون خيامهم ومتاعهم ليعودوا للمدينة .

وعندما رأى « ارتينوف » عن قرب ، جمال «أنا» وصباها الآسر الاخاذ ، سارع الى تقديم المعذرة الى « موديست اليكسيفتش » مع أسفه ، اذا كان تصرفهم البرىء قد تسبب فى اثارة أو ازعاج كريمته .

وكم كانت دهشة « ارتينوف » بالغة ، عندما قال له « موديست » ، مستدركا : لعلك تريد أن تقول زوجتى !

كانت الحياة بالنسبة « لأنا » حلقة مفرغة من الضيق والرتابة والملل . وكانت من يوم زواجها تخاف زوجها وتخشاه ، وتطيعه كارهة وهى تزدريه وتنفر من رؤيته

وكان عندما يعود من عمله ، لا يكف ، ولا يمل من

الحديث عن التعيينات فى المناصب العليا ، وما يصيب أهل الحظوة من أوسمة ونياشين . وهو اذا شاء أن يتحدث فى أمر خلاف هذا الحديث المتكرر ، وجد الطريق مفتوحا أمامه للتحدث عن الاقتصاد فى نفقة الدار ، وتدبير شئون المنزل بغير افراط او تفريط ، بل فى صرف كل مبلغ مهما قل شأنه فى موضعه .

وكان زملاء «موديست» فى العمل ، يمضون فى داره أمسيات طويلة فى لعب الورق . وكان على « أنا » أن تصغى الى زوجاتهم فى ثرثرتهن ، واغتيابهن الغائبات بصورة يأباها الخلق الكريم .

خلت يد « أنا » من كل مال فيما عدا الضرورى من النفقة على الدار ، التى يراجعها زوجها كل يوم ، للتعرف على ما يصرف من ماله فى وجوهه الصحيحة .

***

وحدث ذات يوم ان زارها أخواها الصغيران ، فى دار زوجها الثرى . ولما لاحظت « أنا » ما ران على الشقيقين من تعب المسير وبرد الطريق ، اخذتها بهما الشفقة ، وراحت تعد لهما اليسير من طعام لايشبع ، بل يرد عليهما أنفاسهما اللاهثة ، ويبعث بعض الدفء فى أطرافهما المرتعدة .

وما أن تم اعداد هذا اليسير من الطعام ، ووضعته أمامهما على المائدة ، حتى دخل الزوج وهو يزمجر فى ثورة واهتياج ، فزع منهما الصغيران ، وراح يسب ويلعن « أنا » التى سمحت باستقبال أخويها ، واطعامهما من مأكل داره .

وفى غمضة عين كان الطريق يبتلع الصغيرين ،

ويلفهما الثلج والريح العاصف ، وهما فى طريق العودة الى المنزل الخالى من الدفء والطعام والحنان .

وتمضى الايام على هـذه الرتابة الكئيبة ، ليحل الشتاء الذى تأخذ الاستعدادات خلاله طريقها لاحياء الحفلات التى كانت تبدأ باقامة « بال » يسهر على اعداده نادى النبلاء .

وقد رأى « موديست اليكسفيتش » ، ان الفرصة قد سنحت لتقديم زوجته الفاتنة الى هـذا المجتمع الارستقراطى الرفيع ، ليباهى بجمالها الحضور من الجنسين .

ولم يكن مدفوعا الى ذلك بعامل ادخال السرور على قلب زوجته الفاتنة ، أو العمل على تسليتها وتعويضها عن حياتها الرتيبة معه ، ولكنه كان يطمع فى أن يترك جمال زوجته أثره لدى الامير ، رئيس الدولة ، ليصل من وراء ذلك الى ما كان يصبو اليه من مطمع يهون فى سبيله كل غال ، عندما ينجح فى الوصول الى منصب رئيس المجلس الاستشارى للمقاطعة .

وقد بلغ من اهتمام « موديست اليكسيفتش» بهذا الامر ، انه ترك نظرياته الاقتصادية جانبا ، وفتح قلبه وجيبه لحائكة ثياب زوجته ، وراح يغدق عليها المال لتشترى لزوجته أغلى ما فى السوق من ثياب ، دون مراعاة لاى عامل آخر .

كان همه منصرفا الى اعداد زوجته لتكون فى اكمل زينة وأتم بهاء ، وليذهب ما يذهب من مال فى هـذا السبيل ما دام هو الوسيلة الى المجد الذى كان يحلم به ويسعى اليه ويغزل له كل هذا النسيج ..

وفى ليلة « البال » ، كانت « أنا » قد أتمت زينتها وازينت كعروس فى ليلة الجلوة .

وعندما دلفت بجمالها وفتنتها الى الصالة الكبرى ، التى كانت تتلألأ وتسبح فى ضوء الثريات ، وتعج جوانبها بالاحاديث والمرح والموسيقى ، ورأت جمال وجهها البهيج ، وقدها المشوق ، وطرفها الهامس ، تعكسه اليها المرايا التى كانت تملأ طرقات الصالة وجوانبها ، أحست برضى يغمر حنايا نفسها ، ويوغل فى جوانحها، لينقلها الى عالم آخر ، رأته بعين خيالها ، زاخرا بالبهجة ، وواسع الآمال .

وللمرة الاولى أحست بما يشبه اليقين ، من فرط اهتمام من حولها بها ، بمدى سلطان جمالها الآسر .

وراحت تشق طريقها وسط هذا الحشد المرح الطروب ، عالية الجبين ، نافذة النظرة ، مليئة بالثقة التى أحست بها تغلى بين جوانبها وتمور ، لتحطم ما وضعه زوجها من قيود حول حياتها ، وحول ذات وجودها .

***

فى هذا الحفل الساهر نجحت « انا » فى بلوغ أوج ما كانت تطمع فيه من اثارة اهتمام كل من وقع نظره عليها .

وأخذ الرجال والشبان يتسابقون الى خطب ودها وصداقتها ، وكلهم من علية القوم ، ومن أكثر أهل الجاه علوا .

وكانت نظرات اعجابهم وتقديرهم تترجم عن توسلهم لنيل الحظوة بالرقص معها ، وهى لا تستجيب الا بعد

دلال ، يطيب لهم ، وقد استسلموا الى ما كانت تتدلل به ، خاضعين للواء حسنها العالى الذرى .

ولم تكن فى كل ذلك تحس بوجود زوجها ، أو تأبه له .

وفجأة ظهر « ارتينوف » فى هذا « البال » . وكان هذا اللقاء هو الثالث بينهما . وما أن رآها حتى سارع اليها ، عارضا أن تسمح له برقصة « المازوركا » التى كانت تعزفها الفرقة الموسيقية الاميرية .

ولم تبخل « أنا » على « ارتينوف » بما ارتجاه ، منذ أن قرأت فى عينيه صدق ولعه بها وهيامه البادى .

وكان يبذل كل حيلة ووسيلة ، ليباعد بين المتطلعين اليها ، وبينها ، وليستبقيها الى جانبه كلما استطاع الى ذلك سبيلا .

وفجأة خفتت الاصوات فى الصالة ، وتراجع الجمع المحتشد فى خشوع ، وهم يفسحون الطريق لصاحب السمو الذى أعلنت الابواق ، نبأ تشريفه .

كان صاحب السمو يتهادى فى سيره ، وقد احاطت به حاشيته فى موكب كله جلال واناقة .

وما أن التقت عيناه بعينى « أنا » حتى اختلج بصره، وارتد طرفه لحظات خاطفة ، عاوده بعدها ثبات متحفظ لم يلبث أن تهاوى عندما رأى خطواته تسير به نحوها ، وهو يبتسم لها فى اعجاب وافتتان .

وكان الامير الذى اشتهر بتذوقه الرفيع ، وحسه الدفين فى الكشف عن مكامن الفتنة فى النساء الجميلات ، قد قرت عينه عندما حطت على جمال «أنا»

ادرك ذلك كل المحتشدين فى الصالة الكبرى ، بما فيهم « مودبست اليكسيفتش » زوج « أنا » .

وكان هذا الزوج يقف وراء أحد الاعمدة ، وقد غمره الفرح والاستبشار بما حدث ، ووجد أن العناية تمهد له الطريق أمام أمانيه .

كانت عيناه تبعثان رسائل التوسل لزوجته ، لتستزيد من التلطف والاستجابة لنظرات هذا الامير الرفيع الشأن ، فبين يديه تحقيق طموحه .

وحدث أن إقيمت سوق خيرية ، كانت « أنا » ، منذ أن دخلت بجدارة من أوسع أبواب الطبقة النبيلة فى الولاية ، تبيع فيها الزهور فى سلة أنيقة ، لرواد السوق من الزائرين الاثرياء ، الذين كانوا يرون أنها أينع من كل ما تحمل من ورود وزهور .

وكان المعجبون يحيطون بها ، وفى مقدمتهم «ارتينوف» المتيم الولهان ، الذى غمر السوق بالمال ، كما اشترى منها كل سلة تحملها ، فى سبيل الحظوة منها بابتسامة، أو همسة أو لفتة .

أما نجاح السوق الخيرية ، فقد كان حديث المدينة ، ولم يسبق أن بلغت حصيلة المبيعات ، مثل ما بلغته هذا العام بفضل جمال « أنا » .

***

فى صباح ليلة السوق الخيرية ، عندما كانت « أنا » تنام فى جناحها المستقل ، كانت حجرات الاستقبال تضيق بسلال الازهار التى بعث بها المعجبون .

وكان الزائرون يفدون الى الدار الانيقة ، واحدا تلو الآخر ، دون أن ينال أحد منهم شرف لقائها .

أما « ارتينوف » فقد كان هو الوحيد الذى أتاح له ماله المتدفق على الخدم والوصيفات ، السبيل الى لقائها .

وعندما جلس « ارتينوف » الى جوار « أنا » وقد ضمهما حديث هامس ، كان الزوج « موديست الكسيفتش » يبتسم « لارتينوف » ابتسامة مجاملة ، لم تلبث عند انصرافه أن انقلبت الى نظرة حاقدة كارهة، أوقفها عند حدها ، وجود زوجته « أنا » .

على ان هذا الزوج ، سرعان ما غرق فى سعادة غامرة ، عندما استقبل الامير ، الذى حضر الى داره ، ليشكر « أنا » على مساهمتها فى هذه السوق التى نجحت بفضلها .

وبعد أن جلس قليلا يتحدث الى « أنا » ، هم بالانصراف ، وفى وداعه الى الباب الخارجى ، كان الزوج يستمع من الامير الى اكثر مما كان يحلم به .

طلب الامير من « موديست » أن يسمح له بالتردد على داره كصديق للأسرة ، فأجاب الزوج بأن ذلك يعد أكبر شرف يسعى اليه أى نبيل ويحظى من يناله بالسعادة والتكريم .

وجد الزوج « موديست » أن الحظ يسير فى ركابه ، وان خطته أخذت تؤتى ثمرها .

***

سلكت « أنا » فى حياتها الجديدة ، طريقا غريبا عما ألفته ، ومخالفا لما درجت عليه فى سابق حياتها .

لم تكن تملك يوما واحدا تعيشه لنفسها ، لازدحام أوقاتها بمختلف المواعيد والحفلات .

فمن خروج الى الخلاء فى حفلات صيد ، الى رحلات لمضارب الغجر ، لمشاهدة رقصاتهم وألعابهم ، وحياتهم الخاصة على سجيتها .

كذلك كانت تؤم سباقات تقام للخيول وتجلس للتحكيم فى حفلات راقصة وترتاد الملاهى ، والمراقص ، والمسارح ودور الاوبرا . واندفعت فى هذا المجال الى آخر مداه .

وكان « أرتينوف » هو الملازم الدائم « لأنا » فى هذه الاماكن .

وكانت كلما تقلبت فى نعيم هذه الحياة وزخرفها ، أحست بأنها انما خلقت لهذه الحياة الصاخبة الضاحكة اللعوب ، التى تملأ جنباتها الموسيقى والرقص ومواكب المعجبين .

***

ومن ذلك اليوم الاول ، الذى تألقت فيه ، فى حفل « البال » الراقص ، وأدركت ما لجمالها من سلطان آسر ، زالت عنها خشيتها من زوجها ، وارتدت الى خشيته هو منها ، حتى لقد كان يرضى منها بأن تصفه بالغفلة والضعف والغباء ، وتنفر منه كلما اقترب منها ، وتطرده من حضرتها اذا أصر على البقاء .

وكان الزوج الطامح ، ينظر اليها نظرة المحتاج لمن بيده مفاتيح سعادته وتحقيق رغباته ، دون ما نظر الى ما كان يبذله من ماء وجهه وما كان يتقبله من جارح القول لهوان شأنه وضياع كرامته .

وكان هذا الشعور نحوها ، يحمله على التعلق بها والتزلف اليها ، مهما تمادت فى احتقاره وجرح كبريائه التى زايلته .

وشاء الأمير أن يظهر عطفه على الزوج «موديست» ، فقصد الى داره ، ليمنحه وساما أسمه « وسام انا » من الطبقة الثانية ، وهو أنعام كان «موديست» يصبو اليه ويبتغيه ، لانه يقارب بينه وبين مطمعه وطموحه.

وعندما هم الامير بوضع ربطة الوسام حول رقبة «موديست» التى كان يتدلى منها « وسام أنا » من الطبقة الثالثة ، قال له مازحا :

« انك الآن تحمل ثلاث طبقات من « وسام أنا » :

أولهما ما كنت تحمله ، وهو من الطبقة الثالثة ، ثم هذا الوسام الذى أعلقه الآن ، وهو من الطبقة الثانية ، أما « وسام أنا » من الطبقة الاولى ، وابتسم ابتسامة ذات معنى ، فهو زوجتك « أنا » ...

وعلى الرغم من العواصف الثلجية التى اشتدت وعلا صفيرها خارج الدار ، الا أن الرجلين كانا فى أعلا درجات الغبطة والمرح .

أما « أنا » ، فقد أكسبتها راحتها النفسية ، دفئا وحرارة انعكسا على صفحة وجهها الجميل ، الذى ازداد فتنة وحيوية ، ينضحان بما امتلأت به جوانحها من ثقة واعتداد .

وكأنما حياتها الجديدة ، ومباهجها المتنوعة ، ونظرات المعجبين بها ، وسيطرتها على من حولها ، قد أقامت سدا بين كل هذه المناعم ، وبين ما كان يثقل فكرها من هم الفكر فيما كانت فيه هى وأبوها وأخواها ، وماكان يحيط بهم من قسوة العيش وتجهم الحياة .

وسرعان ما انمحت من ذاكرتها صورة الموظف المكلف ببيع منقولات بيت والدها سدادا لديون العائلة ، كما

تلاشت من فكرها ذكرى آخر زيارة لهذا الموظف ، الذى قدم الى الدار ، ليأخذ آخر ما كان بها وهو «أورغون» كان صـــاحب البيت ـ والد « أنا » ـ يلتمس من الحمالين ، دقائق يعزف عليه للمرة الاخيرة لحنا اثيرا عنده ، طالما سكب على روحه بعض العزاء والسلوى .

فلمــــا انتهى من عزفه ، هرع الحمالون ، ورفعوا « الاورغون » الذى تعرى البيت من بعده ، من كل أثاث .

خرج الاب المترنح مع ولديه الى العراء ، حيث الثلوج الهاطلة ، والعواصف الصاخبة ، وهم فى ثياب مهلهلة ، لا ترد ريحا ، ولا تبعث دفئا .

وفجأة برزت على الطريق ، أمام هذا الثلاثى المشرد البائس ، عربة من عربات الانزلاق على الجليد ، التى تجرها الجياد المطهمة الفارهة ، وقد جلس على مقعدها ، رجل وانثى .

ولم يكن وجه الانثى غريبا عن « بيوترليونيفتش » والد « أنا » ، حيث كانت هى بعينها ، ابنته .

انطلق المسكين ، يصرخ هاتفا باسم ابنته الحبيبة ، ويناديها نداء يائسا متواصلا : « انا .. انا .. أنا » ضاع هو وصداه ، بين جلبة العربة ، وضحكات «انا» اللاهيــة عنه ، والغافلة عن أخويها الشقيين ، بحياتها الجديدة العابثة ، فى صـــحبة عاشـــقها « ارتينوف » الثرى المستهتر اللاهى .

مـوبـاسـات

(١٨٥٠ - ١٨٩٣)

يعد «هنرى رينيه البير جى دى موباسان» الروائى الفرنسى ، من اشهر والمع كتاب القصة القصيرة فىالعالم

ولعله تميز عمن سبقه أو لحقه من كتاب القصة ، بقدرة خارقة لا تجارى ، علىالملاحظة الدقيقة، والتعمق فيما يرى ، تعمقا يكتنف كل شىء ، ويكشف عن كل شىء .

لقد شبهه بعض النقاد ، بعالم من علماء الحشرات الذى يستعين بالمجهر فى دراساته وتجاربه ، ليرى ما يريد الكشف عنه واضحا وضوحا لا لبس فيه .

ولم يكن يفترق « دى موباسان » عن هؤلاء العلماء ، الا فى أنه كان يتخذ من الانسان ، وسيلة لدراساته ، حيث يجرى عليه التجارب ، ويتوغل فى أعماقه ليرى بواعث اعماله ونوازع تصرفاته .

ورغم ان اتزان عقله قد أصابه الخلل والوهن ، وانعكس على ما كان يكتب من قصص ، فانه استمر فى عمله ، وأخرج قصصا هى فىعالم الادب تحف وروائع، رغم ما كان يكتنفها من تشاؤم وأسى وارتياب وغرابة.

كان يطيل النظر فى أعمال «جوستاف فلوبير » الذى

كان يتخذه نموذجا له فى أعماله ، ويشهد له بالاستاذية والزعامة فى أعماله الادبية والقصصية .

كانت أولى قصصه المنشورة ، « كرة الشحم » ، التى استلهم موضوعها من أحداث الحرب الروسية عام ١٨٧٠ .

وقد نظم الشعر وصدر له ديوان . كما زاول كتابة المسرحيات والروايات الطويلة ، الا أن قصصه القصيرة ، هى التى أضفت عليه المجد والشهرة اللذين لم ينعم بهما ، وأن كان عاش بعد وفاته ، خالدا فى عقول وقلوب الذين يقرأون قصصه .

وكان غريب الاطوار . فقد كان يكره أن يرى صورة له . كما كان لا يكره شيئا قدر كرهه لذكر الموت ، الذى يرتجف عند سماعه خبرا لوفاة من يعرف أو من لا يعرف .

ولقد جن له أخ شقيق ، وتوفى مجنونا بعد أن أصيب مخه بمرض قضى عليه .

ومنذ ذلك الحين ، وفكرة الجنون لا تبارحه. وكان بسبب كثرة تفكيره فى الجنون ، أن سكب افكاره وتصوراته فى قصة « الهورلا » ، التى اهتم فيها بوصف مشاعر وأحاسيس رجل يوشك أن يلحقه الجنون

وقد تنبأ له كثيرون ممن كانوا يحيطون به بمصيره ، وصدقوا بعد حين فيما تنبأوا به .

فما أن وافى عام ١٨٩٠ ، حتى اختلت قواه العقلية، ولم يلبث أن أصيب بشلل اقعده ، وحال بينه وبين الكتابة .

ولم يطل به الوقت ، حتى جن جنونا مطبقا ، قاده

اليه اسرافه البالغ فى الانغماس فى الملـذات انغماسـا بافراط لم يترفق فيه ببدنه وعقله ، الى جانب انكبابه على العمل دون أن يعطى نفسه حقها من الراحة .

ولم يكن يعرف الوسط أو الاعتدال فى لهو أو قصف أو عمل .

ولم يعش طويلا ، فقد وافاه أجله عام ١٨٩٣ . وكان واقعى المذهب . وقد انساق وراء هذه العقيدة التى قادته الى ارتياد الاماكن المشبوهة ، واقتراف مختلف المعاصى الحسية ، بحثا وراء الحقيقة التى نذر نفسـه للـكشف عنها للناس ، ليريهم حقـائق الامور ، التى تكشفت له نتيجة للتجربة الذاتية ، كما جاءت انعكاسا لمشاعر صادقة من التذوق والحس والممارسة والمعاناة

والقارىء يلمس فلسفته متناثرة فى أعماله القصصية . وكان قاسيا فى أحكامه على المرأة . ولم يكن يرحمها ، بل كان دائما ينسج قصصه على غدرها وخيانتها .

والمطلع على انتاجه القصصى ، يبهره منه ، عرضـه لعوالم مليئة بالمرئيات والـكائنات التى تتحرك بينها ، وهى كلها وليدة نظرته لامور تجرى حوله ، لا يأبه لها غيره .

وكان من معجزاته التى احتفظ بها لنفسـه ، انه يخلق من أمر تافه ، لا يعيره الشـخص العـادى أى أهتمام ، مادة غالية ، مليئة بالصور الادبية الرفيعة ، والتحليل النفسى والملاحظة الدقيقة ، الى جانب أسلوب شاعرى رقيق النسج ، دقيق العبارة ، سهل البيان ، وان كان صعب التقليد .

العقد الماسي

كانت في جمالها ورشاقتها ، فلتة من فلتات القدر، وهي التي نبتت في اسرة من أسر العمال الكادحين .

لم تكن تملك « دوطة » ، أو يراودها أدنى أمل أو ترى أية وسيلة تقودها الى طريق الشهرة والجاه ، لتغدو مهوى أفئدة الناس ، ولتؤهلها هذه المزايا ، للزواج من رجل واسع الثراء ، عظيم الشأن .

ولكن شاء لها قدرها أن تصبح من نصيب موظف بسيط يعمل في وزارة المعارف العمومية .

وكانت تحيط نفسها ببساطة طبيعية ، تفردت ، بها دون مثيل أو قرين . الا ان نشأتها وانتماءها لقاع المجتمع ، كانت حجر عثرة ، من فعل قدرها وحظها.

والملاحظ أن النساء اللواتي يولدن عاطلات من الانتساب لطبقة عالية أو أصل عريق ، يغدو جمالهن وفتنتهن ورشاقتهن ، بدائل تغنيها عن الانتماء لطبقة راقية أو أصل رفيع .

كما تغدو هذه الفتنة والرشاقة التي يرفلن فيعالمها ، هي الميراث الوحيد ، الذي يخلق من بنات الشعب ، نساء يطاولن على درب الحياة ، أعظم السيدات شأنا.

كان عذابها لاينقطع . فقـد كانت تحس بأنها خلقت لتعيش وسط كل ما هو رشيق وغال وثمين .

وكم كانت تقاسي من رؤيتها لمنزلها الذى تعرى من كل جمال أو ذوق .

كانت جدران المنزل متهالكة ، وكان أثاث الحجرات مستهلكا ، ومتداعيا ، وأقمشة الرياش لحقها البلى من فرط القدم .

على أن كل هذا الذى كانت تعانى منه ، لو صادفته احدى بنات طبقتها ، لما أحست بعنائها وعذابها .

وربما كان الشيء الوحيد المتواضع الذى ترتاح اليه مما تملك ، يتمثل فى « عروسة » كانت تلبس ملابس مقاطعة « بريتانى » ، وهى التى كانت تحملها على أن تطير على أجنحة الخيال ، وتحلم بعوالم لا سبيل الى الوصول اليها .

***

كانت تحلم بالصالونات الوثيرة ، ذات الرياش الفريد الصنع ، الذى يسبح فى ألوان زاهيـة شرقية ، تتلألأ تحت أضواء ثريات من البرنز ، تتدلى من سقوف الصالونات .

وكانت ترى بعين خيالها فى مثل هـذه الاحلام ، دميتين تمثلان وصيفين ، يجلسان فى استرخاء على المقاعد الوثيرة ، فى ملابسهما التقليدية الملتصقة بأجسادهما ، وقد استسلما لنعاس لذيذ ، مبعثه دفء ينساب من موقد التدفئة .

كانت ترى فى هـذه الأحلام أبهاء متسمة تضم صالونات مؤثثة بأفخر الرياش المتسربل فى حرائر أصيلة بارعة الصنع .

وكانت التماثيل النــادرة و « البيلوهات » الثمينة الغالية ، تزين هذه الصالونات الوسيعة ، بينما قامت الى جانبها صالونات أخرى صــغيرة معطرة ، معــدة لاحاديث طويلة مع الصديقات الحميمات الاثيرات لديها، وبالرجال من أهل الشهرة والجاه ، حتى لتكاد عيون كل النســاء من حولها يحسدنها ، كما تحس بأن ما هى فيه من سمو خليق بجذب أنظارهن .

***

عندما حان وقت العشاء ، جلست مع زوجها حول المــائدة المستديرة ، التى يكسوها مفرش لم تتنــاوله يد التغيير منذ ثلاثة أيام .

كان الزوج يجلس قبالتها ، وقد انهمك فى رفع غطاء آنية الحساء ، عندما ندت عنه آهة فرحة ، أعجبتهــا قوله : « ما أطيب الطعام الساخن ، لا احسب أن هناك شيئا اشهى منه » .

أما هى ، فقــد كانت مسترسلة فى احلام يقظــة ، حملتها على جناحيها الى مآدب فاخرة ، أدوات المائدة فيها كلها فضية متلألئة ، وقد افترشت أرض الحجرة سجاجيد تحمل رسوما لشخصيات من العهود الغابرة وقد احتشدت فيها صور طيور نادرة وسط غابة حالمة خيالية .

كانت الإطباق التى حلمت بها ، يدور بها خدم مهرة ، لا ينطقون الا همسا ، وهم يستمعون الى ما يلقى اليهم بابتسامة غامضة .

وكان كل ما يقــدم على المــائدة ، اما من الاسماك الفاخرة الوردية ، أو من لحوم الطيور الغالية .

لم تكن الزوجة تملك شيئا من أدوات الزينة ، أو من المجوهرات . وهى التى لا تحب من عيشها الا هذه الادوات ، ولا تطيب نفسها الا بها .

فقد كانت تهوى أن تحيطها عيون تغبطها وتحسدها، وبناس يخطبون ودها . .

وكان لها من بين زميلات الدراسة ، صديقة ثرية . ولم تكن تحب أن تزورها فى بيتها ، منذ أن أحست بأنها فى كل مرة تزورها ، تعود الى بيتها باكية حزينة ، وتبقى أسيرة هذا الاسى والاسف والشجن أياما طوالا .

وذات مساء عاد زوجها الى المنزل ، وفى ركابه نشوة الانتصار . وقد ناداها ، وهو يحمل فى يده غلافا كبيرا، وراح يقول لها ، انه يحمل اليها شيئا يخصها .

فتح الغلاف بحماس ، وناولها بطاقة مطبوعة تحمل هذه الكلمات :

« يتشرف وزير المعارف العمومية ومدام جورج رامبانو ، بدعوة مسيو ومدام « لوازيل» لقضاء سهرة بدار الوزارة مساء يوم الاثنين الموافق ١٨ » .

وبدلا من أن يرى ، على حد تصوره ، تهليل زوجته وفرحتها وجدها تلقى على المائدة بطاقة الدعوة مع همهمة ، أودعتها قولها :

ــ ماذا تريدنى أن افعل بهذه الدعوة ؟

ــ ولكن ياعزيزتى ، لقد كنت أظن أنها سوف تسعدك فانت لا تغادرين الدار ، وهذه فرصة لك ، وفرصة عظيمة .

لقد بذلت جهدا كبيرا للحصول على هذه الدعوة . فالراغبون فيها كثيرون ، ولا يحظى بها الا قلة من

الموظفين ، وسوف ترين فيها أغلب الرسميين .

رنت اليه بعيون مجهدة وهى تقول بصبر نافد :

ـ وماذا تحب أن أرتدى من الملابس ، للذهاب الى تلك السهرة ؟

تلعثم لمفاجأته بما لم يكن قد فكر فيه ، ثم أجاب :

ـ تذهبين بروب السهرة الذى ارتديته عند ذهابك للمسرح ! وفى اعتقادى انه رائع .

ولـكنه سرعانما ارتبك وشملته الحيرة ، عندما رأى زوجته وهى تبكى . لقد رأى دمعتين كبيرتين تنزلقان من جانب عينيهـــا الى جوانب ثغرها ، وراح يقول بسذاجة وارتباك :

ما الذى جرى ؟ ما الذى جرى ؟

وبجهـــد بالغ ، استطاعت أن تتغلب على المها ، وأن تجفف خديها ، وهى تقول بصوت هادىء :

حسنا . ولـكننى لا أملك « روبا » للسهرة . ومن أجل ذلك لا أستطيع أن البى دعوة هذه السهرة . وفى استطاعتك ان تتنازل عنها لاحد الزملاء ممن تستطيع زوجته أن تكون احسن مظهرا وأناقة منى .

أسقط فى يده ، ولـكنه عاد ليقول :

اسمعى يا ماتيلد . كم يكلف الروب اللائق ، الذى يمكن أن ترتديه فى مناسبات أخرى ؟

انتعشت الزوجـة لبضـع ثوان ، وراحت تدير فى رأسها حساباتها ، على أن تكون فى حدود لايعترض عليها ويرفضها بمجرد سماعها من كان على شاكلته كموظف محدود المرتب .

اجابته أخيرا بشىء من التردد :

لا استطيـــع ان اقدر مبلغا على وجـــه التحديد ،
ولـكنى اعتقد ان مبلغ اربعمائة فرنك يكفى لهذا الفرض

علت وجه الزوج صفرة ، مبعثها أنه كان يقتصد مثل هـذا المبلغ تماما ، ليشترى به بندقية صيد وليشترك فى احدى جمعيات الصيد ، فى الصيف القادم للذهاب الى بزارى « نانتير » مع بعض الاصدقاء لصيد الطيور فى عطلة يوم الاحد .

راح يجيب عليها بقوله :

ــ فليكن. سأعطيك هذه الاربعمائة فرنك ، واحرصى على ان يكون الروب جميلا ولائقا .

اقترب يوم الدعوة الساهرة ، وكان يحمل معه لمدام « لوازيل » التعاسة والقلق والحيرة . وقد كان الروب جاهزا ، واحتار زوجها الذى قال لها ذات ليلة :

ــ ماذا جرى ؟ منذ ثلاثة ايام وانت منطوية وفى اسى .

فأجابته بقولها :

ــ ان افتقـــارى الى اى قطعـــة من المجوهرات او الاحجار الـكريمة مما يبعث فى نفسى الضيق والحسرة. بماذا أتزين ؟ سوف أبدو فى مظهر بائس . انى افضل الا اذهب لهذه السهرة .

ــ ضعى زهورا طبيعية . انها رشيقة فى هذا الموسم

وفى مقابل عشرة فرنكات ، تستطيعين الحصول على ثلاث وردات جميلة ناضرة .

لم يستطع أن يقنعها بهذا القول .

ــ لا .. ليس هناك ما هو آلم للنفس من الظهور وسط جو ثرى راق بمظهر فقير بائس .

وعند ذلك صاح زوجها :

ـ يا لك من غبية ! اذهبى الى صديقتك « مدام فوريستير » واستعيرى منها شيئا من مجوهراتها . سارعى اليها لاتمام هذا الامر !

ندت عنها صرخة فرح ، وراحت تقول :

ـ هذا صحيح . ولم يخطر ذلك ببالى مطلقا .

فى اليوم التالى ، ذهبت الزوجة الى منزل صديقتها وسردت على سمعها ما هى فيه من مأزق .

وعلى الفور اتجهت مدام « فوريستير » نحو دولاب بمرآة واخرجت منه صندوقا كبيرا ، وعادت اليها لتفتحه أمامها وهى تقول لها :

ـ اختارى ما تشائين ياعزيزتى .

وضعت « ماتيلد » فى معصميها سوارين ، ثم عقدا من اللؤلؤ ، ثم صليبا من صناعة فينيسيا الدقيقة من ذهب وأحجار كريمة . وراحت تستعرض زينتها أمام المرآة ، وأحاط بها تردد مأتاه عدم قدرتها على تقرير، ماذا تدع وماذا تأخذ .

وكانت تكرر سؤالها لصديقتها :

ـ أليس لديك شيئا آخر ؟

ـ لدى بالطبع . ابحثى بنفسك . فلست أدرى ما الذى يحظى باعجابك .

وفجأة ، وقع نظرها على علبة من الساتان الاسود، تحتوى على عقد فاخر من الماس . وأحست بسرعة دقات قلبها ، وبرغبة جامحة تجتاحها .

كانت يداها ترتعشان وهى تتناول العقد ، لتلف به رقبتها ، التى تنبثق من روب مما ترتفع ياقته . وظلت برهة وهى فى حالة ذهول أمام منظرها فى المرآة .

واخـيرا ، ومع تردد ، قالت وهى تغالب ضـيقها البالغ :

ـ هل أستطيع أن أستعير منك هـذا العقد ، ولا شيء سواه ؟

ـ بكل تأكيد أوافق .

اظهرت امتنانها لصديقتها ، واحتضنتها ، وغادرت دارها وهى تسرع الخطى وقد حملت معها كنزها الثمين

وحلت ليلة العيـد . وكان نجاح « مدام لوازيل » ساحقا . فقد كانت أجمـل وأرشق وافتن من كل الموجودات . وكانت تبدو ضاحكة وقد فاض من وجهها الفرح .

وكانت مهوى أنظار الرجـال الذين تساءلوا عمن تكون ، لتكون ضيفتهم فى مناسباتهم .

وقد رغب كل موظفى مكتب الوزير فى رقصـة « فالس » معهـا كما ان الوزير كذلك كان يلاحظهـا ويرمقها بعينيه .

كانت ترقص بنشوة وبكل فتنة ، واستخفتها الفرحة فلم تعد تحس الا بغلبة جمالها ، وتشعر بعظمة نجاحها، وكأنما قد ظللتها سحابة من السـعادة ، حتى لقد استيقظ داخلها كل التقدير والاعجاب ، من خلال هذا النجاح البالغ الذى تهش له قلوب النسـاء .

لقد غادرت الحفل السـاهر ، فى السـاعة الرابعة صباحا ، فى حين كان زوجها قد استسلم هو وثلاثة من الرجال للنوم فى صالون صغير .

وكان قد وضع على كتفيـه ، معطفـه الذى أحضره ليلبسه عنـد الخروج ، وهو من قماش متواضـع ،

يتمشى مع الحياة العادية ولكنه يتعارض مع فخامة « البال » الذى لا مكان للفقر فيه .

لقد احست هى بذلك ، وودت لو استطاعت الفرار حتى لا يلحظ هذا الرداء ، اولئك السيدات الملتفات بالغالى من الفراء .

استوقفها « لوازيل » وهو يقول لها :

— انتظرى لحظة ، فسوف تصابين بالبرد ، وسأحضر عربة ولكنها لم تستمع لحرف مما فاه به ، وهبطت الدرج مسرعة . وعندما بلغا الطريق ، لم يجدا عربة . وظلا فترة يبحثان عن عربة يعودان بها ، وكانا يصيحان فى طلب عربة من العربات التى كانت تمر بعيدا عنهما .

وكانا يتجهان فى سيرهما نحو السين ، وقد فقدا الامل واشتملتهما رعدة البرد . وأخيرا عثرا على شاطىء النهر ، على عربة قديمة من العربات « الكومبيل » ،التى لا تتجول فى باريس الا عندما يهبط المساء ، ليسترها ظلامه ، وكأنما يحول ما هى عليه من تعاسة وقدم ، دون رؤيتها نهارا .

حملتهما العربة الى دارهما بشارع « لامارتير» ، ودخلا دارهما وقد حطت عليهما التعاسة . فقد انتهى وولى ما كانت فيه ، أما هو ، فقد كان يفكر فى الموعد الذى يتعين أن يكون فيه بالوزارة ، وهو العاشرة صباحا .

راحت تخلع ملابسها التى كانت ترتديها ، بعد أن القت أمام المرآة نظرة الى ما كانت عليه من عظمة .

وفجأة صدرت عنها صرخة فزع ، فقد اختفى العقد

الماسى الذى كان يلتف حول رقبتها .
واخذ زوجها الذى كان يغالب النوم ، يسألها :
ـ ما الذى جرى ؟
استدارت نحوه وهى مذعورة وأجابته بقولها :
ـ اننى... اننى... اضعت عقد مدام «فورستير» الماسى .
وراح يسألها بذهول :
ـ ماذا ..؟ وكيف ..! هذا مستحيل !
مضيا يبحثان فى ثنايا كل جزء من ملابسهما وفى « المانتو » وفى الجيوب وفى كل مكان دون جدوى .
سألها الزوج :
ـ هل انت واثقة من انه كان موجودا عند مغادرتك « البال » ؟
ـ نعم . وقد وضعت يدى عليه ونحن فى مدخل الوزارة .
ـ لو أنه سقط فى الطريق لكنا سمعنا صوت ارتطامه . وعلى ذلك ، فربما يكون وقع فى العربة .
ـ نعم . هذا أمر محتمل . هل تتذكر رقم العربة ؟
ـ لا .. وانت هل تتذكرين ؟
ـ لا ..
وظلا مشدوهين مدة . ثم أخذ « لوازيل » يرتدى ملابسه .
وقال لزوجته :
ـ سأمضى الى الطرقات التى قطعناها سيرا على الاقدام لعلنى أعثر عليه .
وغادر الدار . أما هي فقد ظلت مرتدية روب

السهرة ، دون رغبة فى النوم ، وارتمت على كرسى ، وقد بارحها كل حماس وعقل .

عاد زوجها فى الساعة السابعة صباحا ، دون أن يجد شيئا . وراح يتردد على دوائر البوليس وعلى الصحف ، واعدا بدفع مكافأة مجزية ، كما قصد أصحاب العربات الصغيرة ، ولم يترك مكانا يمكن أن يطل منه شعاع من الامل دون أن يقصده .

ظلت فى انتظار ، وفى نفس الوضع الذى كانت عليه فى الدار عندما وقعت هذه الكارثة المثيرة .

وعاد « لوازيل » فى المساء ، وقد ارتسمت على ملامحه علامات القنوط والشحوب . ولم تظهر أى بادرة عن وجود العقد المفقود .

قال الزوج مخاطبا زوجته ، أن عليها أن تكتب لصديقتها خطابا تذكر لها فيه أنها قد أتلفت خطأ محبس العقد وسوف تعمل على اصلاحه ، وبهذا يكون لدينا الوقت لحين اعادته .

كتبت الزوجة ما املاه عليها الزوج .

وعند نهاية أسبوع من ذلك اليوم ، ضاع كل أمل فى العثور على العقد . وقد قال الزوج « لوازيل » الذى بدا أكبر من عمره بخمس سنوات :

« علينا أن نتوصل الى اعادة مثيل للعقد المفقود » .

وفى اليوم التالى ، حملا معهما علبة المجوهرات التى كانت تضم العقد ، وقصدا محل بيع المجوهرات الذى دلهما عليه ، الاسم المدون على العلبة :

وبعد أن فحص الرجل العلبة ، صرح لهما بأنه لم يبع هذا العقد ، وان كنت أنا الذى أعددت العلبة .

هكذا أخذا يتنقلان من محل مجوهرات الى آخر للبحث عن شبيه ومثيل للعقد المفقود ، حتى أخذ منهما التعب والمجهود المصحوب بالاسى والاكتئاب .

وفى أحد محال المجوهرات فى حى « باليه رويال » وجدا ضالتهما فى صورة عقد ماسى كامل الشبه بما كانا يبحثان عنه .

طلب الرجل أربعين ألف فرنك ثمنا للعقد ، هبطت الى ست وثلاثين ألف ، قبل الرجل بها .

وقد تقدما ، بعد الموافقة ، برجاء للبائع بأن لايتصرف ببيع العقد خلال ثلاثة أيام . كما اشترطا على البائع ، انهما فى حالة العثور على العقد المفقود ، فسوف يعيدان اليه هذا العقد ، المشتري منه ، بمبلغ اربعة وثلاثين الف فرنك ، وذلك فى مدة تنتهى بنهاية شهر فبراير .

كان « لوازيل » يمتلك ثمانية عشر ألف فرنك ، ورثها عن والده . وراح يستدين لتغطية المبلغ الباقى . يستدين من زميل ألف فرنك ومن رجل آخر الف أخرى ومبالغ صغيرة أخرى من معارفه . وقد دخل فى عمليات خاسرة ، واشتغل بأعمال بسيطة ومهن مزرية ، حتى أتى على البقية الباقية من مقاومته ، مع تعريضه بالمهانة لكرامته ، اذا كان قد بقى شيء منها . واكمل المبلغ عن طريق تحرير كمبيالات .

وكان يرى بعين الفاقة والعوز ، مستقبلا أسود قاتما ، منذ أن خسر واضاع كل قدرة ، ومنذ أن تعرض للعذابات النفسية . وكان عليه أن يقصد تاجر المجوهرات ، حيث وضع أمامه مبلغ ست وثلاثين الف فرنك نقدا .

وعندما حملت مدام « لوازيل » العقد الماسى الى صديقتها « مدام فوريستير » ، قالت لها هذه الصديقة بلهجة ساخرة وباردة :

« كنت أبلغتينى انك ستعيدين العقد فى وقت قريب، فربما كنت فى حاجة اليه خلال هذه المدة » .

لم تفتح مدام « فوريستير » العلبة التى ثارت بسببها كل هـذه المخاوف والارتياب والشكوك . ولو أنها توصلت الى معرفة ما جرى بتفاصيله ، فماذا كانت تظن ؟ وماذا كانت ستقول ؟ ألم يكن من المستطاع أن تعتبرها سارقة ؟

لقد جربت « مدام لوازيل » شدائد حياة العوز والحاجة . وقد حملت نصيبها منها بكل شجاعة. وكان عليها أن تدفع هذا الدين المخيف . وسوف تستمر فى الدفع .

وقد استغنت عن الخادمة . وانتقلت الى دار أقل نفقة . وقد اتخذا من حجرات متواضعة ، فى السطوح سكنا لهما « أتيك » . لقد عرفت السبيل الى الاعمال الشاقة ، من تنظيف وترتيب البيت ، الى ما يحتاجه المطبخ من أعمال .

وكانت تغسل الاوانى والملابس ، وكانت تستعمل أظافرها الوردية فى تلميع « كاسارولات » المطبخ .

وكان عليها أن تغسل بالماء والصابون ما تتسخ من الستائر ومن القمصان والملابس الداخلية ، التى تدعها كى تجف بعد نشرها على الحبل المخصص لذلك .

وكانت تنزل الى الشارع لتلقى مخلفات المطبخ فى صندوق القمامة فى جانب الطريق كل صباح ، وتحمل

معها الماء لتصعد به الى السطوح ، مع التوقف عند كل طابق ، لتلتقط أنفاسها .

أما ملابسها ، فكانت مما تلبسه عامة النســاء من الشعب .

وكانت تنتقل بين محلات البقالة والجزارة والفاكهة، وتعود وبين يديها الخبز ، وهي في كل ذلك تدقق في الشراء حتى تحمي مالها القليل من السرف .

وكانت في كلّ شهر تستبدل كمبيالات بأخرى ، أطول مدى كسبا لوقت السداد .

وكان الزوج يشتغلّ في الامسيات بمسك دفاتر أحد التجار ، أما في الليل فانه كان ينسخ فيه ما يطلب منه نسخه مقابل ما يعادل قرشا واحدا في الصفحة .

واستمرت هذه الحياة عشر سنوات .

وعند نهاية السنوات العشر ، كانا قد تمكنا من سداد كل ما كانا مطالبين به ، ومع المشقة والجهد ، استطاعا أن يدفعا الدين كله الذى كانت فوائده عالية وباهظة .

غدت « مدام لوازيلّ » بعد كلّ هذا الشقاء ، مسنة، وقد حولتها الأعمال الشــاقة المزرية التي كانت تقوم بها ، الى امرأة قوية البنية وخشنة الهيأة .

كانت ترتدي ملابس و «جونيلات» ، تنورات العاملات واكتسب العملّ اليدوى يديها حمرة ، كما أصبح صوتها مرتفعا عنـدما تتحدث . وكم كانت تشقى في غســلّ أرضيات الحجرات .

وذات يوم ، عندما كان زوجها في المـكتب ، اطلت من الشباك ، وسبح فكرها مع تلكّ الليلة الساهرة ، ليلة « البالّ » ، عندما كانت بالغة الحسن والرشاقة .

ماذا كان يحدث ، لو أنها لم تفقد ذلك العقد الماسى؟ من يدرى ؟ من يدرى ؟ ما أعجب الدنيا فى غرابتها وفى تغيرها ؟

من الواجب الحتم ، الا يمتلك الانسان ، الا القليل الذى لا يهم ضياعه أو بقاؤه !

وبينما كانت فى يوم من أيام الآحاد ، تتجول فى « الشانزيليزيه » لمشترى ضروريات الاسبوع ، وقع نظرها فجأة على سيدة تقوم بمصاحبة صبى للنزهة فى هذه النواحى .

لقد كانت « مدام فوريستير » ، بكل ما كانت عليه من الشباب والجمال والاناقة .

أحست « مدام لوازيل » بالضيق . هل تذهب لمحادثتها ؟ بكل تأكيد ، وليس هناك ما يمنع من ذلك. أما وقد أتمت دفع كل شيء ، فيمكن أن تحكى لها ما وقع . ماذا يمنع ؟

اقتربت منها :

ــ صباح الخير ياجين .

ولكن السيدة لم تعرفها اطلاقا ، كما أثار دهشتها رفع الكلفة بينهما ، ومناداتها باسمها من هذه البورجوازية .

وبعد أن ترددت وتلعثمت قالت :

ــ ولكن .. ياسيدتى !.. انى لا أعرف .. ولابد أن يكون الامر قد التبس عليك .

ــ لا .. اننى « ماتيلد لوازيل » .

ندت من صديقتها صرخة :

ــ أوه .. عزيزتى « ماتيلد » المسكينة . ما أكثر ما تغيرت !..

ــ هذا صحيح . فقد مررت فى أيام شاقة ، ولم أكن أراك فيها . ما أكثر ما عانيت من شقاء .. وكل ذلك كان بسببك .

ــ بسببى أنا ؟.. كيف حدث هذا ؟..

ــ لعلك تذكرين ذلك العقد الماسي الذى استعرته منك ، لاذهب به الى الحفل الساهر الذى أقيم بالوزارة

ــ نعم أذكر ذلك . فماذا حدث ؟

ــ الذى حدث انى فقدت العقد .

ــ ولكن كيف !.. لقد أعدت لى ثانية ذلك العقد

ــ ان الذى أحضرته أليك كان شبيها للمفقود .

ومنذ عشر سنوات ونحن ندفع الاقساط والديون ، ولعلك تدركين ان ذلك لم يكن بالامر اليسير بالنسبة لنا . فنحن لا نملك شيئا .

وعلى أي حال ، لقد انقضى هذا الامر ، وكيفما كان الحال ، فاني راضية .

شرد فكر « مدام فورستير » لحظة ، وما لبث أن قالت :

هل قلت انك اشتريت عقدا ماسيا بدلا من عقدى الذى استعرته ؟

ــ نعم .. فلم يكن من المستطاع أن تكتشفى هذا الامر منذ أن كان البديل مطابقا تماما للعقد المفقود !.

ثم أرسلت ضحكة مرح مشوبة بالتفاخر والسذاجة.

ــ أما « مدام فوريستير » فقد مدت كلتا يديها لصديقتها ، وهى مشدوهة ، لتقول لها :

ــ مسكينة أنت يا « ماتيلد » لقد كان عقدى من الماس الزائف ، وهو لايزيد فى قيمته عن خمسمائة فرنك .

فهرس

صفحة

كتاب الهلال القادم

العرب والمسرح

تأليف : محمد كمال الدين

رئيس التحرير : صالح جودت

نطاع أن تكتشف
بقا تماما للعقد المف
مشوبة بالتفاخر والبـ
ستير » فقد مدت كلتا
بدوهة ، لتقول لها :

يصدر ٥ مايو

يا « ماتيلد » لقد كان عقدى مز
وهو لايزيد فى قيمته عن خمسمائ

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

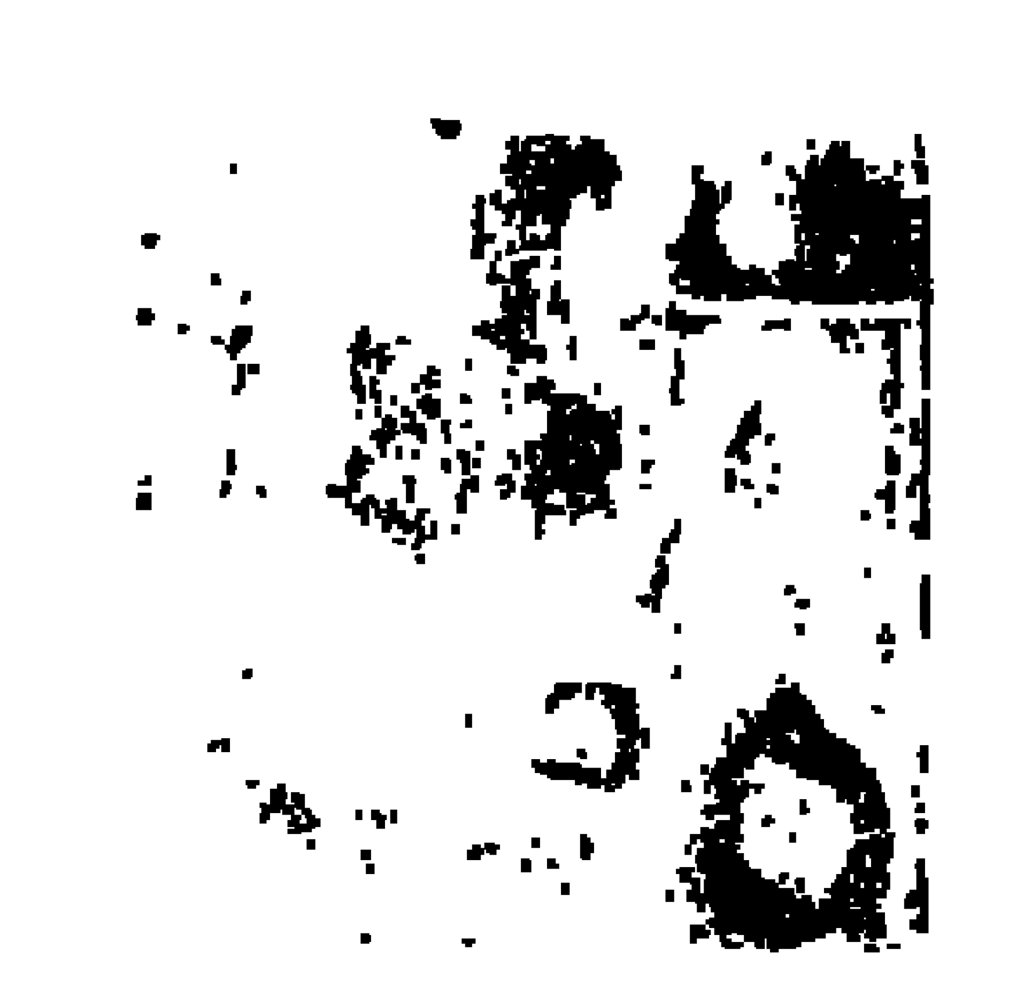
جدة — ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Blakopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury,
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.



هذا الكتـــاب

بين يدى القارىء ، اعمـــال ادبية ، تسلك مسلك القصة ، وان لم تكن لها كل مواصـــفاتها ، ويتجاوران وان كانا لا يمتزجان

ولعل المتـــابع لها لا يتبين هدفها التـوجيهى والاجتماعى ، لا بقدر لا يحـــزمه لذة المتابعة القصصية ، ولا يفرض عليـــه الاصـــغاء لشـــئون متعـــددة الغايات ٠

وللقصة وجهان : وجه ادبى ووجه فنى ٠ اما وجههـــا الادبى فمن خلال عرض اعمـــال ادبية لمشاهير كتاب القصة فى العالم ، الذين ينشدون من وراء هـــذا العطاء السوى ، تحقيق اصلاح ، او تقويم اعوجاج ٠

اما فى القصة ، فهـو المتداول بين ايـــدى الناس ، فى روايات عاطفية » او جنسية او بوليسية، وما تتطلبه من مقاييس تسير بها نحو حبكة الختـــام ، متوخيـــة التشويق والاثارة ٠

ورسالات الســـماء ، توسلت بالقصة الادبية كاداة للزجــــر والتوجيه « ونحن نقص عليـــك احسن القصص »٠

وقـــد حرص المترجم على ان يقدم لكل كاتب دراســـة لمذهبه الادبى واسلوبه الفنى وفلســـفته التحليلية ، قبـــل عرض عمله ، ليلمس القـــارىء ، مدى عناية كل كاتب ، ممن تضـــمن اعمالهم هذا الكتاب ، بطرح روائع انتاجه على القـــراء ، متوخيا ما فى القصص من اثارة وتشـــويق ، وما فى الادب من روعة وعذوبة٠

والاستاذ احمد عبدالمجيد كاتب من كبار كتابنا له مؤلفات نفيسة فى مختـــلف الوان الادب ما بين ادب للرحلات وادب للترجمـــة الذاتية وبحوث تاريخية ادبية ٠

١٢ قـــرشـــا